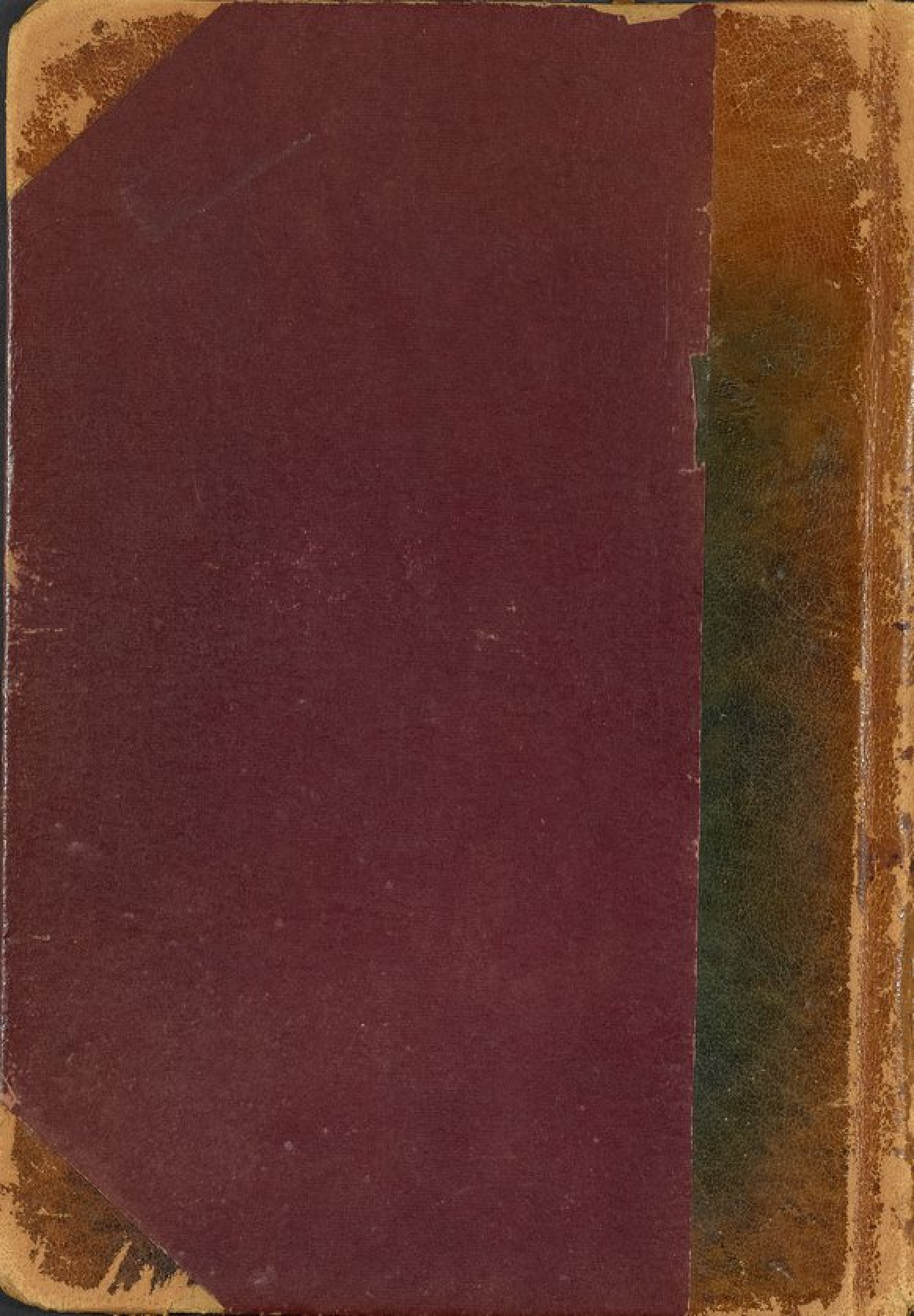
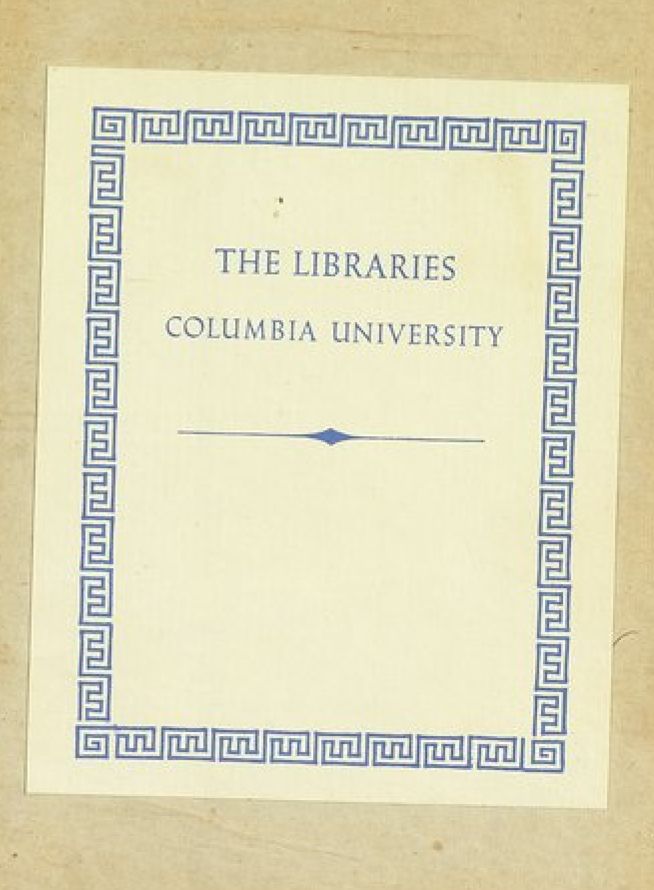
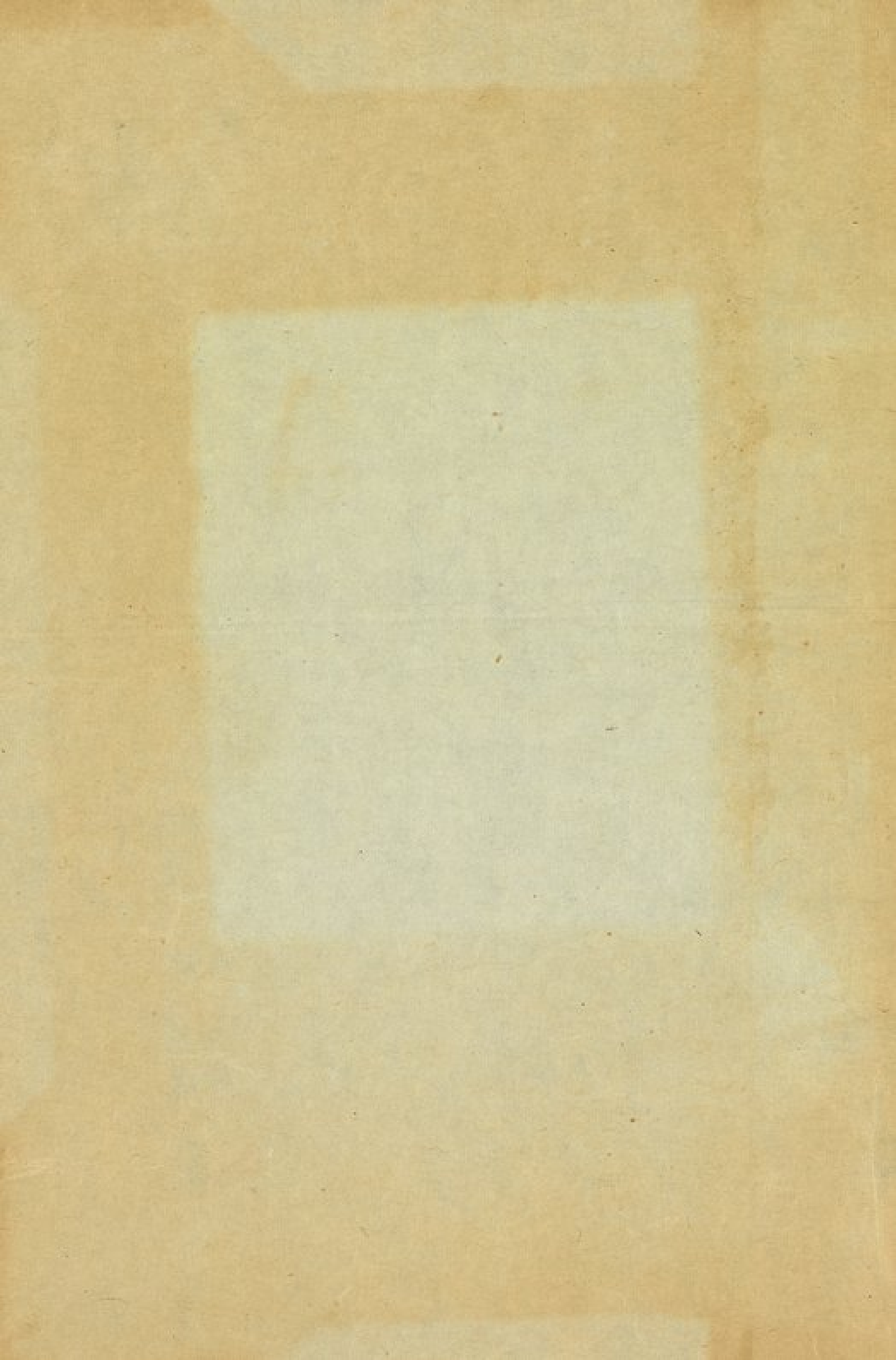
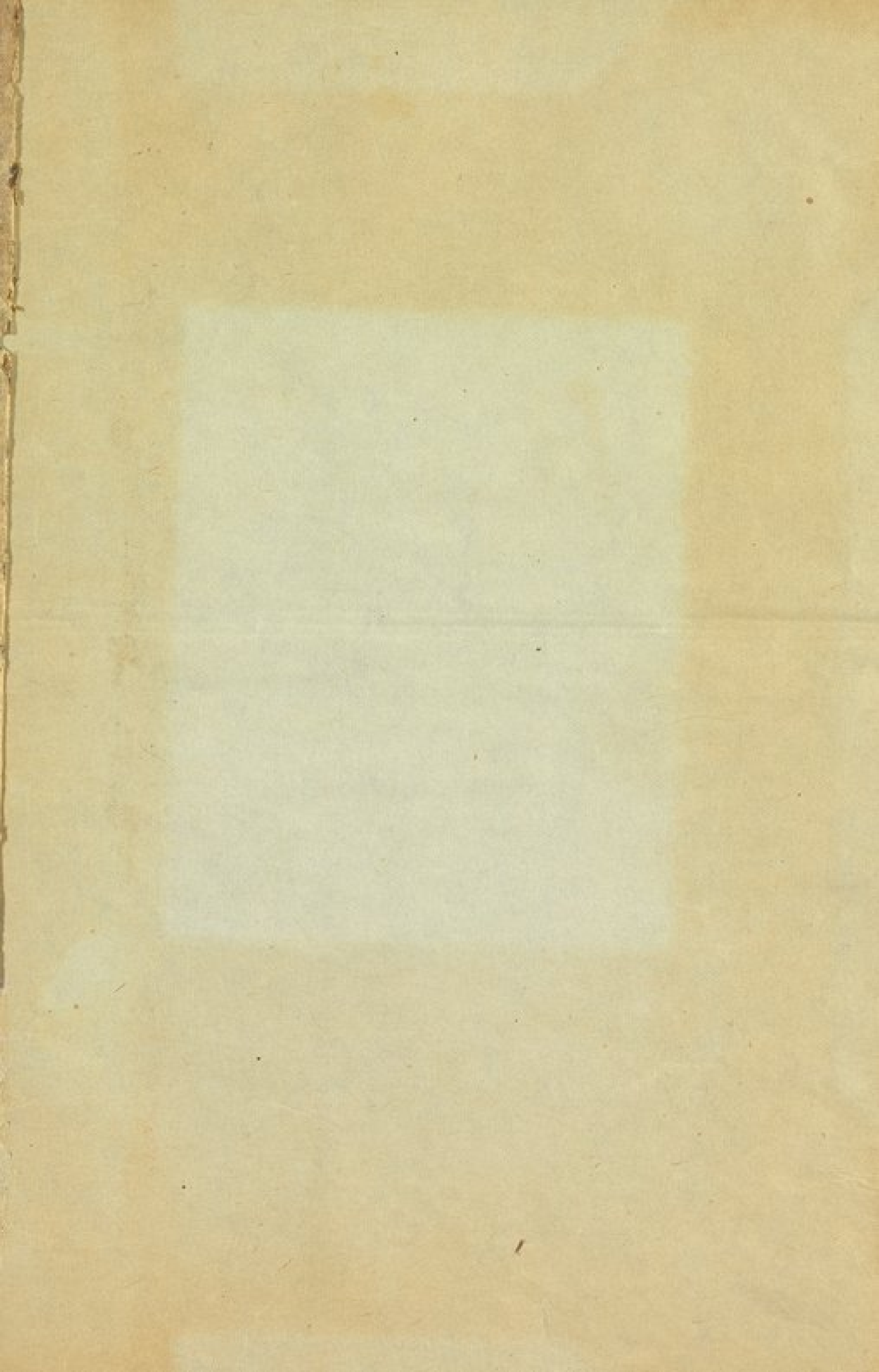








در تهران روز شنبه پنجم فروردین ماه ۱۳۱۹ [illegible]

فهرست كتاب تاريخ السلطان سليم خان مع السلطان الغورى

كتاب تاريخ السلطان سليم
خان بن السلطان بايزيد خان مع
قانصوه الغوري سلطان مصر
واعمالها تأليف الشيخ احمد بن
زنبل الرمال المحلي رضي الله
تعالى عنه على التمام
والكمال والحمد لله
على كل حال
وبه نستعين
امين
م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم هذه رسالة مشتملة على غزوة السلطان الاعظم والخاقان المعظم مالك رقاب الامم صاحب السيف والقلم خليفة الله في العالم مولى ملوك العرب والعجم فارس ميدان الشجاعه حارس بنيان الشهامه قاتل الفراعنه والجبابرة كاسر الاكاسرة والقياصره مكمل الدولة العثمانية ممهد القواعد السلطانيه السلطان بن السلطان السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مع قانصوه الغوري سلطان مصر واعمالها فكان خروجه من مصر في يوم السبت سادس عشر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين وتسعمائة وكان امراء دولته اولهم سودون العجمي امير كبير واركماس امير سلاح وامير مجلس وسيدي محمد بن السلطان

الغورى امير اخور كبير وسودون الدوادارى رأس نوبة النواب وانس باى حاجب الحجاب فانصوه بن السلطان جركس وتقطباى نائب القلعة وقانصوه كرت وطومان باى دوادار كبير وتمر الزردكاش وجانبلاط ابو ترسين ثانى بك الخازندار وازدك المكحل ورزمك الناشف وابرك رأس الجلبان واقباى الطويل وبيبرس ابن عم السلطان وامير كرتباى الوالى والامير علان رأس القرانصة الشجعان والامير قانصوه الفاجر والامير قانصوه ابوسنه والامير قانصوه رجله فكان هؤلاء الاثنان وعشرون امير اصحاب الطبلخانات فى مصر لهم الامر والنهى والحكم مثل السلطان وكان كرتباى الوالى اعظمهم حرمة واقومهم كلمة لشجاعته وفروسيته ومقاومة الشجعان والابطال فى حومة الميدان وسيأتى ذكر طرف لما كانوا عليه رحمة الله تعالى عليهم اجمعين آمين

ذكر النواب فى البلاد

وهم الكشاف فاول النواب نائب قطيه كان قانصوه رجله واما القدس الشريف وغزة والرملة وما هناك من الضياع فكان المتولى على جميع ذلك الامير دولتباى واما صفد وترابلس الشام وبيروت وصيدا واعمالها فكان النائب عليها الامير تمراز الاشرفى واما دمشق فكان نائبها اصلان بن بداق واما حماه فكان نائبها الامير قنبردى الغزالى واما حلب فكان نائبها جانبردى وعنتاب نائبها يونس بن اقبية واما قلعة الروم كان نائبها ابا يزيد وكانت اضنه وجميع بلاد مرعش واعمالها الى ديار بكر يحكم فيها علاء الدولة والحين ينتهى الى ناحية الروم يحكم فيها محمود بن رمضان وكان علاء الدولة يحمل المال الى مصر من جميع حكمه وبلاده وهو الذى كان سبب

الفتنة بين السلطان سليم وبين الغورى وخيربك ايضا الى
ان تحصل ما حصل من القتال بين الفريقين ان ربك هو يفصل
بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون ان الارض لله يورثها
من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين واما الكشاف فكان
أسيوط فيها برسباى الاشرفى ومنف كاشفها قانصوه
العادلى والفيوم والبهنسا كاشفهما جانم الاشرفى ودمنهور
مع يونس البدوى والمحلة مع الماس وكان مشهورا بالظلم
واما الثغور المحروسة فكان نائب الاسكندرية قضابردى
ونائب دمياط على باى واما مشايخ العربان فى الصعيد الاعلى
فكان ابن عمر الامير على فى جرجا واولاد الاحدب فى الشرق
وشيخ عزالة حماد بن خبير فى الجيزة والامير حجازى بن بغداد
بالمنوفية وشيخ البحيرة كان الجويلى واما الغربية كان من
نواحى سنهور حسن بن مرعى وكانوا على هذا الترتيب فى زمن
الغورى رحمة الله عليهم اجمعين وكان فى الشرقية احمد بن
بقر وكان قليل الخير سيرته سيئة ونرجع الى خروج السلطان
الغورى من مصر فلما وصل الى غزة قام بها ثلاثة ايام فشكت
الرعايا للسلطان من نائب غزة فعزله عنها ورسم عليه وعنفه
على فعله وظلمه وزجره غاية الزجر وبعد ذلك رده اليها
لكونه ابن عمه فورد على السلطان مكاتبة وهو مقيم بغزة
من عند سيباى نائب الشام يذكر فيها الذى يعرضه المملوك
على المسامع العالية اعلاها الله تعالى وادامها ان العبد سمع
بان السلطان يريد السفر الى قتال ابن عثمان وان المملوك يقوم
بهذا الامر ويكون السلطان مقيما بمصر ويمد المملوك بالعساكر
المنصورة والذى يعلم به مولانا السلطان ان خيربك ملاحج
علينا ومكاتيبه لا تنقطع من عند ابن عثمان فى كل حين فرد عليه

السلطان ها نحن قد جئناهم بانفسنا ثم امر بالرحيل بالجيوش
والعساكر وهم يموجون كالبحر الزاخر والسحاب الماطر
فرسانا كالعقبان الكواسر ولكن اذا نزل القضاء عمى البصر
فالقى الله تعالى فيهم الفتنة فكان كل من الاعيان يتمنى هلاك
السلطان حتى يكون هو السلطان فبهذا الموجب هلكوا اجمعين
ويبعثون على نياتهم ومن غريب صنع الله تعالى ان السلطان
الغورى كان له رمال حاذقا فكان كل حين يقول له السلطان
انظر الى من يلي الحكم بعدى فيقول حرف السين فكان السلطان
يعتقد انه سيباى وكان كلما كتب سيباى للسلطان بما يفعله
خيربك نائب حلب من المكاتبات للسلطان سليم بانه معه
وانه ملاحى على ابناء جنسه ويحرضه على المجئ الى اخذ مصر من
الجراكسة والسلطان الغورى لا يقبل من سيباى نصيحة حتى
نفذ قضاء الله تعالى وحكمه وقدرته وكان ما كان ولم يتمكن
سيباى من ملاقاة السلطان الا على سعسع وهى قرية من
قرى الشام وحضر سيباى قدام السلطان وقدم تقدمة
عظيمة لها قدر وقيمه فشكره السلطان على فعله شكرا زائدا
بعد ان خلع عليه خلعة عظيمة ولم يخلع على احد من النواب
غيره وكل ذلك والسلطان معتقد ان الخيانة انما هى من
سيباى وما قصده الا اخذ السلطنة كما ذكر المنجم الرمال على حرف
السين ولا يظن ويخطر فى فكره ان السلطان سليما يقدم
يدخل ارض مصر ابدا لما يعلم من شجاعة الجراكسة ولم يمكنوا
احدا من اخذ بلادهم وما دروا ان الارض لله يورثها
من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وكان السلطان
الغورى يعلم ان سيباى بطل من الابطال لا يخطر الموت
على باله فانه كان فارسا مناعا وبطلا شجاعا ذا عزم شديد

وبأس شديد فكان السلطان لا يحسب الا حسابه واما خيربك
فانه لم يكن السلطان يحسب له حسابا لما يعلم من جبانته وعدم
شجاعته فاخذه من لا يكترثه وكان سيباى من مماليك السلطان
قايتباى وكان رجلا يعد برجال وهو الذى عمر المدرسة
التى بدمشق المعروفة بمدرسة سيباى وهى اذا طلعت
من سويقه باب الجابية وانت طالب الى دار السعادة تكون
على يسارك ووقف لها الاوقاف ورتب لها الخيرات رحمة
الله عليه قال الناقل وهو الشيخ احمد بن زنبل الرمال المحلى
الجامع لسيرة الجراكسة وما وقع بينهم مع السلطان سليم بن
عثمان فان السلطان سليم كان له اخ اكبر منه يسمى السلطان
احمد وكان حاكم برصه وكان اخوه قورقود حاكم المغنيسا
والسلطان سليم قبل ان يتسلطن كان حاكم طرابزان ولكنه
كان ذا همة عالية فى طلب الملك والرياسة على اخوته فالهمه
الله تعالى زواج ابنة ملك التاتارخان ليكون ظهر اله فتزوجها
ثم تجرد بعد ذلك لاخذ الملك من ابيه لما سمع من الجواسيس
الذين كانت تأتيه بالاخبار ان اباه السلطان بايزيد ضعيف
على موت وانه ارسل لولده احمد يحضره ليقلده الملك من بعده
فخاف احمد من اخيه سليم لما يعلم من طلبه الملك لنفسه فتأخر
عن المجئ فجرد سليم العساكر على ابيه فلما سمع ابوه ذلك اخذته
الغيرة وامر بالخروج لملاقاته فخرجت العساكر ووقع الحرب
بين الفريقين فكانت الكسرة على السلطان سليم فانهزم واخذ
زردخانته بجملتها فهرب الى الكوفة فدخل عند رجل يقال له
كمال اغا وهو دزدار القلعة فاضافه ومكث عنده مدة
ايام فشكى له السلطان سليم مما جرى له وما ذهب منه من
المال والرجال وهو متحير فى امره وقد قصد اخذ الملك من ابيه

قبل

قبل ان يعطيه لاخيه احمد فلم يصح له ذلك فقال له كمال اغا
عندنا من مال ابيك شئ كثير متحصل وكان يريد ان نرسله له
لنأخذه وتقوى به ففعل كما قال له كمال اغا وجمع له عسكرا اكثر
من الاول وكان السلطان سليم لا يتوقف فى جمع العسكر
لا على رومى ولا على عجمى بل كل من اختار ان يكون من عسكره
قبله ويعطيه الجامكية ويجعله من عسكره فجمع عسكرا كثيرا
وجرد على ابيه ثانيا يريد القسطنطينية وكانت عساكر ابيه
كلهم مالوا الى السلطان سليم لما يعلمون من علو همته واما
ابوه السلطان بايزيد فانه كان رجلا مباركا من اولياء الله
تعالى لا يحب العظمة ولا التجبر وكان رأس عسكره أغاة
الينكجرية يونس أغا فلما وصل الخبر الى السلطان بايزيد بان
ولدك سليما جرد عليك ثانيا امر العسكر بالخروج لقتال
ولده فلم يطعه احد من عسكره فجاء السلطان سليم الى ان وصل
الى مدفن ابى ايوب الانصارى رضى الله عنه فدخل الوزير
الاعظم وكان اذ ذاك فرهاد باشا على السلطان بايزيد واخبره
بذلك واعلمه بان العساكر كلها مالت الى السلطان سليم ويبغضونك
لما يعلمون من تعففك عن العصمة الملوكية وانت تعرف ما يترتب
على ذلك فامره السلطان بايزيد ان يقول لهم السلطان يولى
عليكم ولده احمد فابوا ذلك وقالوا ما نريد الا سليما كلمة
واحدة فخرج السلطان بايزيد يريد الكوفة بماله وعياله
وان يقيم هناك الى ان يموت ودخل السلطان سليم الى
القسطنطينية فجلس على تخت الملك فلم يسافر ابوه الا يومين
ومات رحمة الله عليه فى سنة ٩١٨ واما اخوه السلطان احمد
فانه لما ارسل خلفه ابوه ليقلده الملك جاء الى ان وصل اسكدار
فلم يجسر ان يدخل القسطنطينية خوفا من اخيه ومن العسكر

لانهم على غرض السلطان سليم فلما تولى السلطان سليم ارسل
لاخيه احمد خلعة ورده الى مكانه وايضا ارسل خلعة الى اخيه
قورقود الى مملكته وهى مغنيسا ببرّ اناضول واستقر هو فى
الملك ثم ارسل خلف كمال اغا الذى كان بالكوفة وجعله اغا
اليكيجرية ويونس اغا جعله وزيرا وجعل فرهاد باشا باشة
روم ايلى ثم امر بقتل اخوته واستقل هو بالملك فهرب اخوه
قورقود الى مصر واستجار بالغورى فاجاره فارسل السلطان
سليم يطلبه من الغورى فأبى ان يمكنه منه فاشتدت العداوة
بين الغورى وبينه حتى وقع ما وقع قال الراوى ومما وقع
بينهما من شدة العداوة ان السلطان سليما لما غزا على شاه
اسماعيل سلطان العجم وجاء بالعساكر من على البيرة وكان
نائبها يسمى علاء الدولة من طرف جناب السلطان الغورى
فامر علاء الدولة اهل مرعش ان لا يبيعوا على عسكر السلطان
سليم شيأ مطلقا من الماكل ولا من غيرها فمات اكثر الدواب والناس
من شدة الغلاء وكان هذا سبب الحرب بين الغورى وبين
السلطان سليم وحصن علاء الدولة البلاد كلها والحصارات
والابراج فلما جرى للسلطان سليم ذلك شاع عرض على وزرائه
ذلك وحصل له من الغم ما لا مزيد عليه وكان السلطان سليم
حاد المرارة صعب الخلق فاراد ان يأمر العسكر بالحملة على
تلك النواحى ويحاصر مرعش فأشار وزراؤه عليه ان يرسل
يعلم بذلك الغورى فامر بكتابة مرسوم الى ملك مصر قانصوه
الغورى يخبره بما فعل علاء الدولة فاجابه الغورى بان علاء
الدولة عاصى امرى فان قدرت عليه فاقتله وخلع على قصاده
وارسلهم ثم كتب الغورى مرسوما وارسله خفية لعلاء الدولة
يشكره على ما فعل ويغريه على قتال السلطان سليم ولا يمكنه من

شئ ابدا وكان قصد الغوري القاء الفتنة بين الاثنين رجاء ان
يقتل احدهما او كلاهما فيكتفي شرهما فانه كان يعرف شدة بأس
كل منهما فقوى قلب علاء الدولة على قتال السلطان سليم
واما السلطان سليم لما قرأ جواب الغوري علم بفراسته انه
خديعة له فتحملت نفسه من الغوري غاية التحمل فكان ذلك
سببا لاثارة الفتنة بينهما حتى وقع ما وقع كما هو المشهور
ثم سافر السلطان سليم الى ملاقاة شاه اسماعيل ووقع
الاتفاق بينهما بان يبطل النار ويقاتل بالسيف والعود فلم
يثبت السلطان سليم غير ساعة وولى عسكره منهزما لان الروم
لا قدرة لهم على ملاقاة الفرس من غير نار فعند ذلك امر اغاة
اليكنجريه اذ يرموا بالنار فما كان الا ساعة وانهزم شاه اسمعيل
فان النار لا يطيقها احد فأخذ السلطان سليم ما وجد في
اوطاق العجم وانثنى راجعا منصورا يريد قتال علاء الدولة
واما علاء الدولة فانه جمع جيوشا كثيرة والتقى الجمعان وكان مع السلطان
سليم ابن شهسوار وكان شهسوار هو الملك والحاكم على تلك
الديار وهو اخو علاء الدولة فلما قبض على شهسوار بالحيل
التي عملت عليه شنق على باب زويلة بمصر في زمن قايتباي
على يد الامير يشبك الدوادار كبير والقصة مشهورة ثم اخذ
علاء الدولة الحكم بعده وكان لشهسوار ولد اكبر اولاده
فهرب الى السلطان سليم فما زال عنده حتى وقع هذا الحرب
مع علاء الدولة واصطف الفريقان للقتال وخرج ابن
شهسوار الى الميدان بين الجمعين باذن من السلطان سليم وقال
من عرفني فقد كفى ومن لم يعرفني فانا ابن شهسوار ابن من
ربي في انعام ابي اين المحبون لي ولوالدي فليأتوا تحت سنجق
من حماني من عدوي ولا بد لكل الناس من يحبه ويبغضه فارتج عسكر علاء الدين

وافترق منه بعضه فمن كان يبغض علاء الدولة مالوا الى ابن شهسوار فما تم
غير ساعة حتى عقل علاء الدولة وغالب اولاده وقطعت رؤوسهم
وجاؤا بهم الى السلطان سليم فارسل بهم الى الغوري فلما
راهم حس قلبه بزوال ملكه لما يعلم من اختلاف عسكره
عليه كما وقع لعلاء الدولة فان الملك ليس هو ملكا الا بالعسكر
فاذا انحرف عليه عسكره ضاع ملكه ثم ان السلطان سليما
طمعت آماله فى اخذ مصر ثم توجه الى ادرنه ثم استشار مع
الوزير الاعظم وهو احمد باشا بن هرسك وبعده بيري باشا
فقال ابن هرسك للسلطان سليم نحن تصادمنا مع عسكر مصر
فى زمن ابيك وكنت انا باش العسكر وكسرونا اشد كسرة وقبضوا
على ودخلت مصر اسيرا حتى وقفت بين يدى السلطان قايتباى
فمن علي باطلاقى وعفى عنى عفى الله عنه وقد حلفت له ان لا
اسحب فى وجه القبلة سيفا ابدا وصدقه على ذلك بيري باشا
ثم بعد ثلاثة ايام امر السلطان سليم بعزل الاثنين ثم سار
قاصدا عسكر مصر فلما وصل الى مدينة زملطى اقام ينتظر
الاخبار فلم يأته احد

ذكر ارسال القاصد من السلطان سليم الى الغوري

فامر السلطان سليم بارسال قاضي الى الغوري وكان اسم
القاضي زيرك زاده وكان اعرج فما زال حتى وصل الى حلب
فرأى اوطاق الغوري خاليا من العسكر ما فيه الا نحو الف او
الفين لانهم كانوا كلهم دخلوا الى مدينة حلب واخرجوا الناس
من بيوتهم وسبوا حريمهم واولادهم واذوهم الاذى البليغ
وكان ذلك سببا لقيام اهل حلب مع السلطان سليم على الجراكسة
لشدة ما حل بهم من الضرر منهم فلما بلغ الغوري بانه جاء
قاصد من عند السلطان سليم اذن له فتمثل بين يديه وتأدب

غاية الادب فرحب به وسأله عن السلطان سليم فقال له انا
هذا ولدك وتحت نظرك فقال له الغوري لولا انه مثل ولدي
ما جئت من مصر الى هنا باهل العلم جميعا حتى نصلح بينه وبين
اسماعيل شاه ثم اجزل عطاءه وصرفه ثم امر الغوري بالخروج
الى الحرب فخرج جميع العسكر واودعوا جميع اموالهم عند اهل
حلب بعد ان كدروا عليهم غاية التكدير واذوهم غاية الاذى
فلما خرجوا من عندهم دعى عليهم الكبير والصغير والغني والفقير
لما حصل لهم من ضررهم فلما استقر الغوري في وطاقه

ذكر ارسال الغوري الى السلطان سليم قاصدا

امر بارسال قاصد للسلطان سليم فشاور اكابر دولته فاقتضى
رأيهم ان يرسل رجلا من اهل العلم والدين ليتكلم بينهما بالمعروف
رجاء لحقن دماء المسلمين فلم يفعل وامر باحضار الامير مغلباي
دوادار وكان رجلا فاضلا قادرا على رد الاجوبة واقامة الحجة
فقال له الغوري جهز نفسك واخرج اكشف لنا خبر اهل الروم
وما هم عليه واعط هذه المكاتبة الى ملكهم ثم امر عشرة من خيار
العسكر بالتوجه مع مغلباي الى عسكر السلطان سليم وهم
ملبسين بالملابس الفاخرة كل من رآهم يتعجب في خلقهم وحسن
خيلهم وهندامهم وهم كالعرائس واصطفوا صفا واحدا فلما
دخلوا ووقفوا بين يدي السلطان سليم من غير اطالة نظر اليهم
مليا وامتلأ من الغيظ ثم قال للامير مغلباي يا مغلباي استاذك
ما كان عنده رجل من اهل العلم يرسله لنا وانما ارسلك بهؤلاء العشرة
يرعب بها قلوب عسكري ويخوفهم برؤية اجناده ولكن انا اكيده
بمكيدة اعظم من مكيدته ثم امر برمي رقبة مغلباي وجماعته
وغيظ من صميم قلبه بجلاد فارتجفت قلوب الحاضرين لذلك
فقام الوزير يونس باشا وقبل الارض بين يديه وقال الرسول

لايقتل وليس له ذنب فقال لابد من ذلك فقال الوزير فان
كان ولابد فابق على كبيرهم مغلباى فأمر بحبسه ورمى رقبة
العشرة قدام اوطاقه واحدا بعد واحد وهو ينظر اليهم وحبس
مغلباى بقلعة رملطو يومين ثم احضره وحلق ذقنه والبسه
طرطورا وركبه على حمار اعرج معقور وقال له قل لاستاذك
يجتهد جهده وها انا حضرت اليه كالبرق الخاطف والرعد
القاصف ولم يقرأ مكاتيب الغورى لشدة غيظه لانه لما رأى
مغلباى والعشرة الملبسين بالحديد المانع فهم بالفراسة انه
ما ارسل هؤلاء الا لتخويف عسكره من شدة باسهم وفرسانهم فلما
رجع مغلباى للغورى على هذه الصفة عسر عليهم ذلك واقامت
نفوسهم على قتال السلطان سليم بعدما كانوا يظنون انهم انما جاؤا
للصلح بين شاه اسماعيل والسلطان سليم ثم امر الغورى بان
يخرج العسكر من مدينة حلب الى وطاقه ويتهيؤا للقتال وامر
الامير كرتباى الوالى بان يكشف خبر السلطان سليم وعسكره
ويرجع على الفور ليمشي عليه ويبادر للحرب فلما وصل كرتباى الى
قيصرية وجد اهلها قد قفلوا ابوابها وتأهبوا القتال اهل مصر
لما بلغهم ما فعلوه في حلب واهلها من اخراجهم من اماكنهم
ونهب اموالهم وغصب نسائهم وبناتهم ثم وجدوا يونس
باشا نائب عنتاب عزل حريمه وماله وهو معول على الرحيل الى
السلطان سليم وقد قلب على ابناء جنسه ومال مع الروم فرجع
كرتباى الوالى واخبره بأن قيصرية وعنتاب عصوا علينا وارادوا
قتالنا وما لوا مع السلطان سليم وجاءنا الخبر بأن طلائع عسكره
قد اقبلت فلما تحققنا ذلك عطفنا راجعين فارتج عسكر مصر
لذلك ووقع فيهم الخلل فعند ذلك انتبه الغورى من ساعته
وجمع الامراء والاعيان وتحالفوا على ان لا احد منهم يخون صاحبه

ويكونون

ويكونون على قلب رجل واحد ويقاتلون عدوهم بعد ان كان
غالب العسكر ما يظن الا الصلح بين السلطان سليم وبين
شاه اسماعيل واما يونس نائب عنتاب فانه ندم على
فعله مع كرتباى الوالى وقال فى نفسه ربما تكون النصرة لهم
فلا آمن على نفسى ولكن اجعل لى معهم وجها وركب من ساعته
الى ان تمثل بين يدى الغورى وزعم ان السلطان سليما قبض
عليه وانه هرب منه وجاء الى مولانا السلطان مساعداً له
على عدوه فلم تنطل حيلته على السلطان ثم امر بتوسيطه فى الوقت
والساعة فوسط والامراء والاعيان كلهم مجتمعون فقام من
بينهم الامير سيباى نائب الشام وقبض على خيربك نائب حلب
وجره من طوقه بين يدى السلطان الغورى وقال يا مولانا
السلطان اذا اردت ان الله ينصرك على عدوك فاقتل هذا الخائن
وكان خيربك فى يده كالشاة بين يدى السبع وهو يجره فقام الامير
جانبردى الغزالى وقال يا مولانا السلطان لا تفتن العسكر
وتبدأ فى قتال بعضهم بعضا وتذهب اخباركم الى عدوكم ويزداد
طمعه فيكم وتضعف شوكتكم والرأى لكم وتأخر فى مكانه وهذه
مكيدة من الغزالى والا كان خيربك قد هلك ولكن اذا اراد الله
تعالى بأمر بلغه ولمحاله قاتل فامرهم السلطان بأن يتحالفوا
ثانيا وان لا يخون منهم احد والخائن يخونه الله تعالى وعليه لعنة
الله ثم امر السلطان ان ينادى فى حلب بالرحيل منها بالعسكر
لقتال السلطان سليم وان يتأهب كل احد ويستفيق لنفسه
وكان ذلك فى يوم الجمعة الثانى من رجب سنة اثنين وعشرين
وتسعمائة وكان له مواكب حتى رجت الارض وليس الخبر كالعيان
وكان الجلبان ثلاثة عشر الف مملوك كلهم مشتروات الغورى
ولا واحد منهم الا ويعرف سائر انواع الحرب والفروسية فانه كان

يجتهد في تعليم الجلبان وكان قصده ان ينشئ له عسكرا من مماليكه
مشترواته ويقطع القرانصة وهم مماليك الملوك الذين قبله
وكان يحسب حسابهم خوفا من ان يمكروا به كما فعلوا بمن قبله
وكان آخذا حذره ولكن الحذر لا ينفع من القدر والقاعدة
المشهورة من طلب جله فاته كله وكان معه الاربعة الائمة من
المذاهب الاربعة وخليفة سيدى احمد البدوى وخليفة سيدى
ابراهيم الدسوقى وخليفة سيدى احمد الرفاعى وخليفة سيدى
عبد القادر الجيلانى وكان معه المؤذنون الدواخل والوعاظ
وكان له نظام عظيم فانخرم ذلك النظام وانتكست تلك
الاعلام ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

ذكر التقاء الجمعين

ولما التقى الجمعان فى مرج دابق وكان فى اول الجيش امير كبير سودون
العجمى واركماس امير سلاح والخشباى امير مجلس وكان امير اخور
سيدى محمد بن السلطان الغورى اقام فى حلب بامر والده وكذ
دوادار سكتم الاشرفى ومن كان فى مقدمة العسكر سودون
الدوادارى راس نوبة النواب وانس باى حاجب الحجاب وقانصوه
ابن السلطان جركس وكان من الابطال وتمر الزردكاش
وجانبلاط ابو تريسين وتانى بك الخازندار وازبك المكحل وبيبرس
ابن عم السلطان وباتوا تلك الليلة على غير حرب ولكن لم يهنأ
لاحد منهم نوم من مكر بعضهم لبعض

وكان ابتداء الحرب يوم الاحد المبارك

الثالث والعشرين من رجب سنة ٩٢١ فلما انضح النهار ركبوا كالبحر
الزاخر فاذا صفوف العثمانية قد بانت صفا بعد صف خارجا
عن الوصف والاعلام الملونة من اليسار والميمنة وهم سائرون
كالبحر السيال والمحيط الميال وقد رتبوا الصف من كل طرف فاذا

طير من الطرف الكبير الذى فيه السلطان سليم مدفعا كبيرا كالبرق
الخاطف والرعد القاصف تزلزلت منه تلك الصحرا وطلع دخان
كالجبال الزرقا فكان اول من بادر العثمانية بالحرب من طائفة
الجراكسة اصلان ابن بداق نائب حمص اخذ قنطارية
بيده واطلق عنان جواده وصار يطعن فى الفرسان يمينا وشمالا
فلما رأى الامراء فعل صلان ابن بداق فى حملته اخذتهم الحمية
فحمل الامير سيباى نائب الشام ثم حمل امير كبير سودون العجمى
ومماليكه خلفه نحو الالف ملبسين ثم حمل الامير جانبلاط ابو نرسين
ثم الامير علان دوادار ثانى ثم حمل قانصوه ابن السلطان جركس
ثم حمل كرتباى الوالى وكان فارس المنايا والموت الزوام فلله
دره من شجاع كان فريد عصره ثم حمل تمر الزردكاش وبخشباى
امير مجلس والامير انس باى حاجب الحجاب والامير قنصوه كرت
والامير تانى بك الخازندار والامير تانى بك النجمى والامير بيبرس
ابن عم السلطان الغورى والامير قانصوه ابو سنه والامير
الفاجر والامير خير بك المعمار والامير جانبردى نائب بيروت
والامير جانبردى الغزالى وخير بك نائب حلب وكلاهما كان
راس المتعصبين على الغورى والامير تمراز نائب طرابلس وحملوا
حملتهم حملة واحدة وصادموا الروم ومالوا فى القتال والروم
الاغرون لاقوهم كالاسد الدخال قال الشيخ احمد بن زنبل المحلى
ولم نر فى التواريخ القديمة والحديثة وقعة مثل هذه الوقعة
ولا اجتمع فيها مثل هذين العسكرين ولا اكثر عددا قال ولم يقاتل
فى هذا اليوم من الجراكسة اكثر من الفى فارس وهم الامراء الذين
قدمنا ذكرهم واتباعهم واما جلبان الغورى الذين هم
مشتروانه فلم يتحركوا من مواضعهم ولم يهزوا رمحا ولا جذوا
سيفا وسبب ذلك ان الله تعالى لما اراد ازالة دولتهم اوقع فيهم

الخلف لامر يقضيه وحكم يمضيه وعلى ما قيل ان السلطان
الغورى امر بأن اول مرة يخرج للحرب القرانصة لكونهم
اعرف بالحرب من الجلبان وكان قصده ان ينقطع القرانصة
ليكتفى شرهم ويصفو له الوقت فانه كان يحسب حسابهم خوفا
من مكرهم فامر بتقديمهم للحرب واخر جلبانه فعلموا مكره
لما راوه واقفا هو وجلبانه لم يتحرك منهم احد عن موضعه
فتغيرت نياتهم عليه وقالوا له نحن نقاتل بانفسنا مع النار
وانت واقف تنظر الينا كالعين الشامتة ما تأمر احدا من مماليكك
يخرج للميدان فكان العسكر كله مختلفا فى بعضه مفسود
النية ليس لهم راى يرجعون اليه ولا تدبير يقفون عليه
بل كل من تكلم منهم كلاما يقول الاخر بضده فمن ذلك انخرم نظامهم
واما الامراء الذين تقدم ذكرهم نحو الالفين هم ومن يلوذ
بهم اعتمدوا على الله تعالى فى حملاتهم واصفوا نياتهم وصدموا
الروم وضرب الروم بالمدافع والبندقيات حتى صار النهار
كالليل الحالك من كثرة الدخان والغبار من حوافر الخيل لانهم
كانوا يقاتلون من قلب رجل واحد ونيات متفقة ليس لاحد
منهم فى قلبه غل ولا مكر ولا حسد لاحد وهذا احسن ما يكون
لمن يريد النصر ولقد اجاد القائل اذا اراد الله بقوم خيرا وفق
بينهم واذا اراد الله بقوم شرا فتنهم واوقع الخلف بينهم
ومن اعجب ما يكون من العجب ان هؤلاء القوم القريبين من الالفى
فارس المتقدم ذكرهم من الجراكسة يقاتلون قتال الموت فى نحو
مائة وخمسين الفا من الروم والترك ما بين الوف مشاة ومثلهم
خيالة من عسكر الروم ثم حطموا عليهم حطمة واحدة فبينما
هم كذلك الا والسلطان سليم رمح حصانه من قلب الصف الكبير
حتى وصل الى الصف الوسطانى وفى يده سيف عمر بن الخطاب رضى

الله

الله عنه وصاح على عسكره هكذا تعاركون قدامى مع عدوى
وعيط على الباشات فلما نظر الروم الى ذلك ردوا على الجراكسة كالبحر
اذا سال بعرض الوادى فتراجع الجميع واطلقوا المدافع والبندقيات
وحملوا على الجراكسة وعيطوا الله الله فكانت الكسرة على الجراكسة
وطير والجراكسة والعربان والمشاة مثل القطر فى الثرى وصار
النهار عليهم مثل القيامة الكبرى وكان يجى كل مدفع على نحو
خمسين او ستين او مائة نفس فصارت تلك الصحراء كالمجزرة
من الدماء وما زال الروم والسلطان سليم سائرين حتى جاؤا
الى صف الغورى فرجع خيربك والغزالى مع من انهزم من الجراكسة
حتى دخلوا وطاق الغورى ونادوا باعلى اصواتهم الفرار الفرار
فان السلطان سليما احاط بكم وقتل الغورى والكسرة علينا
وانثنى طالبا حلب فتبعه الجلبان وتشتت العسكر وظنوا ان
السلطان قتل كما قال خيربك وانما فعل ذلك بغضا ومكيدة مع
الغورى والسلطان الغورى واقف مكانه وحوله بعض الجلبان
القريبين منه واما البعاد عنه فانهم ظنوا انه قتل فانهزموا مع
خيربك قاصدين حلب فلما علم الغورى بما جرى لعسكره من التشتت
صار ينادى عليهم باعلى صوته يا اغوات الشجاعة صبر ساعة فلم
يلتفت اليه احد منهم وكان امر الله قدرا مقدورا وكل ذلك
بغضا منهم لسلطانهم فانه كان يريد ان يقطع القرانصة شيأ
فشيأ ثم يستقل هو بجلبانه ويصفو له الوقت والسلطنة ولقد
قال اهل المعرفة من طلب جله فات كله ولا تعاند تغلب لوانك
السلطان فتقدم الامير سودون العجمى امير كبير وقال له يا مولانا
السلطان اين جلبانك اين خاصيتك هكذا عملت بنا ولا زلت
قائما فى حظ نفسك حتى اهلكت نفسك واهلكتنا معك ولكن في
القيامة تجمع بيننا وبينك وسنقف بين يدى مولانا سبحانه وتعالى

بحكم بيننا بالعدل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ثم
التفت عن يمينه فوجد الامير سيباى والامير اقباى الطويل والامير
علان والامير صلان بن بداق ومن يشبه هؤلاء من القرانصة
الاعيان وهم واقفون متجهزون فان جيشهم انكسر قهرا وما عسى
ان تقاتل مائة نفس فى مائة وثمانين الف نفس ولكنهم مع قلتهم
اوقفوا هذا الجيش العظيم ولم يقدر احد منهم ان يتقدم ثم عبث
هذه الطائفة القليلة من الضرب والقتل والكثرة تغلب الشجاع
وما زال الغورى حتى بقى وحده وخلفه حامل السنجق امير اللواء
وكان رجلا كبير السن من مماليك اينال الاجرود فمن شدة ما حصل
للغورى فانه انكسر قهرا ووقع على الارض مغشيا عليه

ذكر قطع رأس السلطان الغورى مع السلطان سليم

قال فلما وقع السلطان الغورى على الارض رمى حامل السنجق
الرمح واخذ القماش المطرز وكان يساوى ثلاثة آلاف ذهب فقال
الامير علان لاقباى الطويل ماترى فى امر السلطان قال له قل ما
عندك قال ان نحن تركناه ورحنا وخليناه يأتى العدو فيقتلونه
ويأخذون رأسه يطوفون بها جميع بلاد الروم قال فما الرأى قال
الرأى نقطع رأسه ونرميها فى هذا الجب والجثة بلا رأس لا يعرفها
احد قال نعم الرأى فأمر الامير علان عبدا من عبيده فقطع رأس
السلطان الغورى ورمى بها فى جب هناك ثم ولى الامير علان
الى ناحية حلب واما الامير اقباى الطويل فانه طلب ناحية العجم
واقام بها الى ان مات واما الامراء الذين التهوا بالقتال مع الروم
فانهم فاض عليهم بحر المنايا وزاد وابتلوا بعساكر ملأت
السهل والواد واجتمع عليهم ذلك الجمع الكثير وخاضت خيولهم
فى بطون القتلى فقاتلوا قتال من قطع من الدنيا اياسه فقصدهم
الرماة بالبندق فوقع الامير سيباى والامير سودون العجمى واما الامير

قانصوه

قانصوه بن السلطان جركس فانه لا زال يضرب بالسيف حتى
خرق عسكر الروم وطلع من ذلك الجانب على حمية فلما خلص
شم الهواء وردت روحه اليه بعد ان كان آيس من الحياة والف
حسنة لرجل خرج من بين الوف ولكن اذا جاء امر الله قضى
بالحق ولا راد لله فيما قضى فوقع فى نهر هناك ينبت فيه الغرقوس
فالتفت على قوائم الفرس فغرق وكانت عسكر الروم تنظر
اليه على بعد فلما رأوه فى هذه الحالة طمعوا فيه واحاطوا به
فقبضوه وعروه من الملبس فقطعوه بسيوفهم واما الامراء
فغالبهم تشتت فى البلاد وغالبهم قتل وانهزمت تلك الجموع
فتمكن عسكر السلطان سليم من وطاق الغورى وأخذوا
كل ما فيه وكان شيأ يفوق الوصف من الذهب والفضة والقناطير
المقنطرة ومن البرق والملبوس والتحف التى جمعتها الملوك السالفة
ذهبت كلها ونهبت فى يوم واحد وذلك بالنسبة لما ابقاه
السلطان فى قلعة حلب وما اودعته الامراء والاجناد عند اهل
حلب وهو شئ لا ينحصر قليل جدا ومما نقل ان السلطان الغورى
لما خرج لملاقاة العثامنة اخذ معه مائة قنطار ذهبا دنانير
ومائتى قنطار فضة انصافا وكان قصده ان يجعل ذلك
نفقة للعسكر ونوى انه لا يزال ذاهبا حتى يصل اسلانبول
ويأخذها من يد السلطان سليم وسبب ذلك ان السلطان
سليما ارسل له كتابا على سبيل النصيحة وغالبه تهديد كالسم
فى الدسم ومن جملة ما فيه انه قال ان لم ترجع عما انت فيه
من الظلم والعناء على المسلمين والا جئتك بعسكر من الروم
واخرب مصر عليك فكان هذا الكلام من جملة السبب
المحرك للغورى على خروجه لحرب السلطان سليم فارسل فى
الجواب انا لا احوجك للمجىء الينا ولكن نأهب للقاء الابطال

وتنظر كيف تفعل الرجال وصدق فى قوله لانه افحم قلوب عسكره
واهلك غالب الامراء من القرانصة فكرهته العساكر كلها
وما خرجوا معه الا وكل منهم يتمنى ان لا يرجع الى مصر وكان
هذا من سوء تدبيره وكل ذلك حتى يجرى القضاء والقدر
قال الراوى وبات السلطان سليم فى مرج دابق ثم اصبح وامر
ان تعد القتلى من الفريقين فوجدوا الذى قتل من الجراكسة
الف نفس واكثرهم من المدافع والبندقيات والذى قتل من عسكر
الروم اربعة الاف ثم وجد فى القتلى رجل عظيم من الجراكسة
وعليه من الملابس الفاخرة ما يناسب الملوك وعليه من الهيبة
والوقار ما لا يوصف ووجهه يتلألأ انوارا وقد جاء مضرب
نزان اخذ فخذه فجئ ببعض من يعرف الجراكسة فوجده سودون
العجمى اميرا كبيرا فامر به السلطان سليم فغسل وصلى عليه وامر
بدفنه فكان تراب فى زاوية هناك تسمى زاوية الشيخ ابى النور
القارى واما ما كان من امر الجراكسة فانه لما وقعت عليهم
الكسرة نهب بعضهم بعضا وصار كل انسان منهم يأخذ ما قدر
عليه وكل من كان له عدو وقدر عليه قتله ولكل شئ آفة من
جنسه وانظر الى قوله تعالى ولا تنازعوا فتفشلوا الاية *
وقوله تعالى واذا اردنا ان نهلك قرية الاية وقوله تعالى
واذا اراد الله بقوم سوء فلا مرد له ثم ذهب غالب العسكر
قاصدين الى حلب فمنعهم اهل حلب لشدة ما قاسوا منهم حين
مجيئهم مع الغورى فتشتت شملهم وذهبت حميتهم وانكسرت
شوكتهم بعد تلك القوة والمنعة العظيمة والباس الشديد
وكان سبب سعادة اهل حلب من هذه الوقعة فانهم كانوا
اودع عندهم الجراكسة جميع اموالهم وخرجوا على جرائد الخيل
فطمعت فيهم اهل حلب وصدوهم عن الدخول لاجل ذلك واما

خيربك فانه دخل حلب واخذ سيدى محمد بن الغورى وكان
ابقاه ابوه على خزانته وامواله بقلعة حلب فاخبره بأن شهسوار
نازل على جيلان بعشرين الف فارس وهو قاصد اخذك واخذ
حلب فقال سيدى محمد فما الرأى يا امير خيربك قال الراى
ان تنادى فى العسكر بالرحيل الى مصر ويجتمع اليك ما شئت
من العسكر وتكون ملك مصر موضع ابيك وانا مساعدك فى
ذلك فصدق فى ذلك ونادى فى حلب بالرحيل الى مصر ومن
له رغبة فى المسير الى مصر فليتبعنا فخرجت الناس على وجوههم
وتركوا اثقالهم واموالهم واختاروا سلامة الروح وكانت
مكيدة وخرجوا من حلب كالهاربين وفعل ذلك خيربك حتى
يأخذ حلب للسلطان سليم من غير حرب وكان الامر كذلك فانه
ارسل الى السلطان يخبره بما فعل وانك تسير فى هذا الوقت
الى حلب فانها خالية من العسكر المصرى واما عسكر حلب فمن
اطاعنا ابقيناه فجاء السلطان سليم بموكبه ودخل حلب من
غير حرب واطاعته الرعايا والعساكر فملكها واخذ الاموال
التى وجدها ونهب الغالب وتلاشى امر ابن الغورى وما دخل
مصر الا فى اسوء الاحوال واذا اراد الله بأمر بلغه قال الراوى
فلما خرج ابن الغورى من حلب قصد دمشق الشام فخرجت عليه
العربان فنهبت اثقاله واثقال من معه ومن قدروا عليه ولولا
الامير ابرك راس الجلبان والامير قنبردى الغزالى والا كانوا
نهبوا جميع العسكر فان العسكر ماتت قلوبهم والقى الله تعالى
فى قلوبهم الرعب فما دخلوا دمشق الا فى اسوء الاحوال فضاقت
عليهم دمشق وغليت الاسعار فاقاموا بها ثمانية عشر يوما واراد
الامير قنبردى الغزالى ان يتسلطن فقال الامير ابرك اولى ما تكون
السلطنة ان تكون لابن السلطان فأجابه الجلبان جملة واحدة

وبعض من القرانصة نعم فلما سمع ذلك الامير قنبردي الغزالي
أيس من السلطنة فشرع في الملاخاة عليهم وفي تعكيس امرهم
وكلما دبروا امرا لحصل منه منفعة يسخطهم فيه فقام الامير
علان وقال تخت السلطنة بمصر ام بالشام قالوا بمصر قال
فاذهبوا الى مصر واجتمعوا بمن بها من الامراء واتفقوا على
انسان تختارونه وسلطنوه فان السلطنة لاتصلح لاحد
الا لاشجعنا واعقلنا وخصوصا نحن في اضيق الاحوال وعدونا
في طلبنا كيف نسلط علينا ولدا صغيرا وان كان هو ابن السلطان
ليس فيه كفاءة وقدرة على السلطنة على هذا الوجه وهذا
الحال فاستصوبوا رأيه وما قصده الا ان تكون السلطنة
له فانه كان من الفرسان المخبورة المشهورة وكل انسان ما يريد
الحظ الاوفر الا لنفسه فاقتضى رأيهم بالتوجه لمصر وابن
الغوري معهم كاحاد الناس لا يلتفتون اليه واما القرانصة
الرؤس فكل منهم يتمنى ان يكون هو السلطان ولا يكون الا
ما يريد مولانا سبحانه وتعالى ثم خرج العسكر من الشام قاصدين
مصر فقالوا للغزالي من يحفظ الشام قال الامير ناصر الدين
ابن الحنش فارسل خلفه وخلع عليه خلعة تليق بمقامه فانه
كان من اعيان شيوخ العربان بتلك الديار وقال له البلاد
بلادك تسلم حفظها حتى ننظر الامر كيف يكون ثم ذهب الامير
قنبردي الغزالي مع العسكر الى مصر وهو كامن لهم الغدر لكونهم
لم يسلطنوه واضمر على معاكستهم ومال بقلبه الى أخي خيربك
في تحريض السلطان سليم على اخذ مصر فانه كان قصده
الرجوع من حلب الى شاه اسماعيل وما قصده أخذ مصر ولكن
اطمعه في اخذ مصر خيربك والغزالي فما زال الامراء والعسكر
سائرين الى ان دخلوا مصر ليلا وهم في اسوء الاحوال فنزل قنبردي

الغزالى في بيته وابن الغورى في بيت ابيه الذى بناه له في البندقانيين
وهو الذى هدمه الحمزاوى وجعله خانا للتجار وبقية البيت
باقية الى الأن وهى القاعة العظيمة وماحولها وبابها من ناحية
سر الغورية فسبحان من يغير ولا يتغير وكان الامير انس باى حاجب
الحجاب في راس حدرة البقر عن يمينك وانت متوجه الى
الصليبة وهو يعرف الأن ببيت حمزة الذى مات في اليمن
وتمر الزردكاش في البيت الذى فى ازائه وبيت الامير تانى
بك النجمى في حدرة الصليبة عن يسارك وانت قاصد الكبش
وبيت الامير ازبك المكحل في راس الدابغ عن يسارك الذى كان
فيه المرحوم عثمان بيك قائم مقام وبيت قانصوه الفاجر اسفل
منه من ناحية باب زويله وبيت بخشباى تجاهه وبيت برك
راس الجلبان في راس الصليبة من ناحية الكبش وبيت الامير
طومانباى دويدار كبير على بركة الفيل وبيت الامير علان على
بركة الناصرية بجوار مدرسة اميراخور وبيت قانصوه كرت
بالقرب من قناطر السباع وانت قاصد مصر القديمة بجوار
مدرسة لاجين وبيت ابن السلطان جركس بقرب سيدى
عماد الدين وبيت تغطباى نائب القلعة بقرب حمام بشتك
التى في راس سويقة العزى من داخل الدرب وهو الذى كان
ساكن فيه قايداغا ناظر الدشيشه وبيت اركماس امير مجلس
في الازبكية في بيت ازبك وتانى بك الخازندار في بيت الامير
ماماى الذى هو الآن بيت قاضى العسكر وسودون الدودار في
بيت جانبلاط بالقرب من الخرنفش مقابل مدرسة الباسطية
وبيت قانصوه ابو سنه في راس سويقة العزى من ظاهر الدرب
وبيت خوش كلدى في التبانة بجوار سويقة البقلى واقباى الطويل
في بيت ترابيه وبيت الامير قانصوه رجله في الرميلة وبيت

بجانب لاط ابو ترسين في سويقة صفية وبيت كرتباي الوالي
في راس سويقة العزى وانت قاصد باب زويله وكانت مصر
بهذه الامرا كالعروس المجلية وكل امير من هولاء كالملك المنفرد بنفسه
وكل من في حارته عايش في رزقه وفي حمايته فسبحان من لا يحول
ولا يزول ولا تراه العيون وبيت قانصوه اصقله بباب الخلق
بالحدرة وانت قاصد سويقة صفية وهو مشهور الى الآن
وكان يأمر السياس بان يصقلوا اجلد الحصانحتى يصير يلمع
كالمصقول من الثياب فلهذا سمي اصقله وكان بيت الامير سودون
العجمي في راس سويقة السباعين على يسار القاصد للسويقة المذكورة
فرحم الله تعالى تلك الارواح

ذكر اجتماع العسكر بالعسكر المقيم بمصر

ونرجع الى اجتماع العسكر بالعسكر المقيم بمصر وحكاية ما وقع لهم
وكيف كسروا وقهروا باختلافهم في بعضهم ومخالفتهم على سلطانهم
فانهم تسببوا في هلاك سلطانهم وهلاك انفسهم وكل ذلك
ثمرة العناد كما قال القائل ولا تعاند تغلب ولو انك سلطان
ثم اجتمع الامراء والاعيان في ثاني يوم بقلعة الجبل فاقتضى رأيهم
جميعا سلطنة طومانباى وبايعوه على السلطنة في يوم الاحد
خامس عشر شهر رمضان سنة تسعمائة اثنين وعشرين وكانت
سلطنة قانصوه الغوري في سنة ست وتسعمائة وكان رحمه
الله غليظ الجثة كبير البطن متوسط الطول كبير اللحية والوجه
ورزق من الاولاد الذكور ثلاثة ولم يعش له منهم سوى سيدي
محمد وقد اخبر ولده هذا عن والده الغوري انه عاش من العمر ستا
وسبعين سنة وقيل ستا وثمانين سنة ولما بايعوا طومانباي
على السلطنة اراد ان يقبض على سيدي محمد بن الغوري ويأخذ
ما معه من المال فقام الامير ارزك راس الجلبان وقام معه من بقي

من الجلبان وقال لا سبيل الى اذى ابن استاذنا بوجه من الوجوه
حتى تذهب ارواحنا يهلك استاذنا بينكم ويغلب قهرا وتريدون
ان تهلكوا ولده الأخر فلا كان ذلك ابدا الا ان هلكنا جميعا
فقالت القرانصة وكان المتكلم منهم الامير علان والامير كرتباي
الوالى فانهم كانوا غرض طومانباى لما يعلمون من دينه وصلاحه
وشجاعته وفروسيته وليس الخبر كالعيان للجلبان
مهما حصل لابن استاذنا فى عرضنا وفى ذمتنا وانكم تعلمون
ان طومانباى رجل صوفى فقير من الدنيا وليس معه ما يقوم
بنظام السلطنة وقصدنا نأخذ من ابن استاذكم قدر ستين
الف دينار فنعطيها لطومانباى يستعين بها على لقاء العدو والقادمين
علينا واما ابن استاذكم فانه ولد صغير ليس فيه كفاية لذلك
فاستحسن الجلبان هذا الكلام وخلوا ما كانوا عزموا عليه من
القيام على طومانباى هذا ما كان من امر الجراكسة واما السلطان
سليم فانه اقام بحلب نحو العشرين يوما وكان مع الغورى خلفاء
المشايخ مثل خليفة سيدى احمد البدوى وسيدى عبد
القادر الجيلانى وسيدى ابراهيم الدسوقى وامثالهم فلما
وقعت الكسرة على الغورى بقيت المشايخ المذكورون بحلب
فلما سمعوا بان السلطان سليما قادم الى حلب خافوا من سطوته
فأخذوا فى الذهاب الى نحو الشام فلما رأهم على بعد مع الرايات
والاعلام قال ما هؤلاء قالوا له هؤلاء خلفاء المشايخ كانوا
جاؤا مع الغورى فلما كسر خرجوا يريدون الذهاب الى مصر
فامر باحضارهم فلما مثلوا بين يديه امر برمى رقابهم واحدا
بعد واحد ولم يرحم منهم كبير الكبره ولا صغير الصغره فقتلهم
عن آخرهم فرحمهم الله اجمعين وكانوا يزيدون على الف رجل قدر
الله عليهم ذلك ثم امر بالتوجه الى الشام وكان المشير له بذلك

خيربك ولما قدم على الشام امر باحضار على نائب القلعة فشنقه لاجل عدم تقدمه على استقباله وشنق غالب جماعته وكان السلطان سليم له اقدام على قتل النفس لا يفكر في قتل احد وكان الامير خيربك والامير ناصر الدين بن الحنش شيخ بلاد الدوادهم المساعدون للسلطان سليم على مراده ليصير لهم عنده يد وتصير لهم مزية على سائر اهل البلاد ومن كان لهم عنده غرض يقوم عليه قال الراوي ثم قوى عزم السلطان سليم على المجئ الى ارض مصر وما حرضه الى مصر الا خيربك فانه قصد الرجوع الى بلاده بعد اخذ حلب والشام كما فعل قبله السلطان تيمور خان فانه كان أخذ حلب وبر الشام بجملته واخرب الشام وحلب مرة واحدة وأفسد العباد والبلاد وهتك حرمات الله فأخذه الله اخذة رابية وكان قصده اخذ مصر من يد سلطانها فراج ابن قرقوف فخشى ان يتحول فعمل السكة والخطبة فى مصر والحرمين باسمه فعاد على عقبه وكذلك السلطان سليم لما اخذ بر حلب والشام قصد الرجوع الى بلاده فأغواه خيربك وقنبردى الغزالى وناصر الدين بن الحنش على التوجه الى مصر وضمن له خيربك اخذ مصر وذلك مكر منه فانه علم انه ان رجع السلطان سليم الى ارض الروم لم تبق الجراكسة على خيربك ولو ذهب الى تخوم الارض فما ساعه الا انه التزم للسلطان سليم باخذ مصر ان شاء السلطان فقال له السلطان سليم وانى باخذ ملك مصر وجميع العسكر اجتمعوا بها وقد اخذوا اهبتهم وسلطنوا عليهم طومان باى وهو مشهور عندهم بالشجاعة والفروسية ولا بد لهم من امر يريدونه ونخشى المجوبين فى بلادهم وبعد المسافة بيننا وبين بلادنا فقال خيربك ان العسكر الذين رجعوا من بعد الكسرة

انقطعوا

انقطعوا وانقطعت قلوبهم لاسيما والخلف واقع بينهم فانهم جميعهم مختلفون وكل من الامراء الاعيان قصده هلاك الآخر فحينما كان كذلك فلا تخش من شئ وانت منصور بنصر الله لك وقرأ قوله تعالى ان ينصركم الله فلا غالب لكم فطابت نفس السلطان سليم على التوجه الى مصر واخذها ولو فني نصف عسكره

ذكر كتابة مرسوم الى السلطان طومانباي

قال ثم امر بكتابة مرسوم الى السلطان طومانباي ملخصه اني اريد ان تكون الخطبة والسكة باسمي وانت نائب عني وابقيك على ما انت عليه فلما وصل المرسوم الى طومانباي قرأه وفهم معناه وطابت نفسه على ذلك لكونه فيه حقن دماء المسلمين فقدر الله تعالى ان الامير علان طالع الديوان واذا قد لاحت منه التفاتة فرأى ولاقية السلطان سليم واقفين تحت الديوان والناس ينظرون اليهم وقد اشيع الخبر بان السلطان سليم ارسل يطلب ان تكون السكة والخطبة باسمه فلما رآهم الامير علان لم يتمالك من نفسه الا ان جذب سيفه وضرب اعناقهم ولاقية بيده وكانوا ثلاثة انفار وطلع الى السلطان طومانباي وهو مملوء من الغيظ وقال له اصحيح ما قيل قال نعم قال فما الذي عولت عليه قال اوافقه على ما اراد واكون سببا في حقن دماء المسلمين وبقاء كل واحد في وطنه فاني علمت من كلامه انى اذا لم اجبه يحصل فساد عظيم وعلى كل فهو قادم علينا ولا محالة وعلمت ان العسكر كلهم مختلفون وليس فيهم احد مع احد وما اظن الا ان الله تعالى اراد زوال ملك آل جركس من هذه الديار فما رأيك انت قال رأيي أن نقاتل عن بلادنا وحريمنا وارزاقنا ونقتل عن آخرنا قال ولكم صبر على القتال قال هذا اسهل ما يكون فاني قاتلتهم في مرج

دابق وعرفت حالهم فانه ليس عندهم معرفة بالفروسية ولا
ركوب الخيل وانما غاية ما عندهم الرماة بالبندق والمشاة فنحن
اذا اصادمناهم تدكس عليهم دكسة واحدة ندعكهم تحت رجل
الخيل ولعل الله تعالى يمكننا منهم ومن سلطانهم نأخذه أسيراً
ونجعله مثلاً ليوم القيامة فلما راى طومانباى عزم الامير علان
على الحرب وانتشر الامر فمنهم من اجاب الى ذلك واختار الحرب
والطعن والضرب ومنهم من اختار الصلح فقام عليهم الامير
علان والامير كرتباى الوالى وشنعوا عليهم بالكلام وذموهم
فما ساعهم الا انهم اتفقوا على الحرب والدفع عن الحريم والاولاد
واما السلطان سليم فلما رجع له الخبر بأن اولاقيته قتلوا بمصر
ارسل خلف خيربك فاحضر امره بالجلوس فجلس وكان السلطان
يحب خيربك لانه لا يأتيه الا على مراده فان السلطان سليما كانت
همته عالية ويحب أن يكون راس الملوك وهو من كان خادماً للحرمين
الشريفين فقال السلطان سليم لخيربك ما الراى عندك قال
نركب الى مصر نأخذها ونقطع هذه الطائفة الجراكسة من ارض
مصر جملة واحدة وانا ضامن لك هذا الامر بعناية الله تعالى
فالتفت السلطان ليونس باشا وقال له ما تقول فقال اقول ان
السلطان يأخذ من غزة الى الشام ويترك لهم مصر فاننا ان مشينا
عليهم وجونا فى بلادهم ما نأمن على انفسنا ان حصل لنا كسرة
لا سيما وعندهم من العربان ما لا يحصى عددا والعربة تركن اليهم
اكثر منا لانهم معتادون عليهم ومنهم من هو مصاهرهم ونندم
حيث لا ينفعنا الندم فتألم السلطان لهذا الكلام من يونس باشا
وحقده فى قلبه ولكنه اسرها له فى نفسه حتى قتله وسيأتى
ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى

ذكر خروج السلطان سليم الى مصر

قال ثم ان السلطان سليما امر بالرحيل بعد ثلاثة ايام الى ارض
مصر واقاطوماناى فانه لما رأى الامراء من الجراكسة معولين
على الحرب جمعهم وضرب المشورة على من يكون باشا على العسكر
فاتفق رأيهم على ان يكون جانبردى الغزالى وكان ذلك اول
عكسهم لكونه ملاجيا عليهم فى الباطن وكان جملة العسكر الذين
خرجوا معه فى هذه التجريدة عشرة الاف عسكريا وعشرة متقدمين
من الالوف وثلاثة من الامراء الاربعينات وثلاثين من الامراء العشرات
ومن الامراء المتقدمين من الالوف العشرة المذكورين جانبردى الغزالى
نائب اسكندرية وقانصوه ابوسته وقانصوه كرت وتقطباى
نائب القلعة ومن الامراء الاربعينات برسباى الشهبى وقرماس
والامير مسد وجانبردى والامير قايتباى نائب الكرك ومن
العشرات الامير خوشكلدى وقانصوه استدار صحبة والامير
جانم دوادار وسيدى محمد بن الغورى واخوه جانبك وقرقاس
الشريفى ولم يسافر فى هذه السنة الحج لان السلطان كان مشغولا
بالحرب ثم خرج العسكر فى اول شوال سنه اثنين وعشرين فلما وصلوا
خان يونس واذا بعسكر السلطان سليم قد اشرف فوقف كل
من العسكرين وارسل كل منهما فارسا يكشف الخبر فلما اجتمع الفارسان
سأل بعضهما بعضا فكل منهما اجاب عن قومه ثم افترقا ورجعا
واخبرا بالامر فلما تحقق كل من الفريقين الخبر تهيؤا للقتال ورتبوا
ترتيب الحرب ودكست الجراكسة بالخيل العربيه دكسة تهد الجبال
فلاقتهم الينكجرية برش بندق فخلت كراقد اكثر من الواقف قد كسر
الغزالى وجانته الحمية والغش فى القتل فتكاثروا عليه وجذبوه
بالكلاليب واخذوه اسيرا فتعصب له الذعر من الغلمان وخلصوه
من قلب العدو وبعد ان قتلوا من الينكجرية مقتلة عظيمة وخلصوه
وكانت الكسرة على الجراكسة واما هذا العسكر من الروم فانه كان

فرهاد باشا تقدم على عسكر السلطان بقدر بريد وكان المساعد له شيخ العرب المسمى بابن البريق على الجراكسة ولاضرهم الا البندق فانه يأخذ الرجل على حين غفلة لايعرف اين جاءه فقاتل الله اول من اصطنعها وقاتل من يرمى بها على من يشهد لله بالوحدانية ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالرسالة ونرجع الى سياقة الحديث فاما السلطان سليم فلا زال سائرا على الراحة حتى دخل قطية فلم يجد بها احدا من العسكر مطلقا فأقام بها ثلاثة ايام فورد عليه احمد بن بقر شيخ بنى وائل ومعه اولاده عبد الدائم وبيبرس والجذامى وخاطر وكان خاطر اصغرهم فخلع عليه وعلى اولاده السلطان سليم خلعا وكان احمد بن بقر صاحب طبل خانه فى مصر واقره على ما هو عليه من بلاده وارزاقه وكذلك مشايخ العربان ثم ان السلطان سليما امر باحضار خيربك ووزرائه وقال ما تقولون فى حيلة يكون بها تفريق شمل الجراكسة قالوا وما هى قال ائتونى بفلان الكاتب وكان هذا الرجل يكتب بالسبعة اقلام ويحاكى جميع الخطوط فحضر فقال له السلطان اريد منك ان تكتب كتبا تحاكى فيها خطوطا مختلفة عن لسان امراء مصر وابن الغورى بانهم معى فى الباطن ويحرضونى على المجئ الى مصر ويكونون معى ويساعدونى على طومانباى وعلان وكرتباى الوالى فكتب الكاتب على لسان الامراء المذكورين وربط الكتب المذكورة واعطاها لرجل من جماعة خيربك وامره بالذهاب الى اوطاق طومانباى وان يرميها بالقرب من مجلس السلطان ويقف لينظر ما يقع بينهم من الخلف ثم يرجع يخبر السلطان سليما ففعل ذلك فرأى المكاتيب بعض مماليك طومانباى فأخذهم واوصلهم الى استاذه فأخذها وقرأها وجمع الامراء واخبرهم بذلك فانكروا كلهم ذلك وحلفوا الايمان المعظمة ان هذا لم يصدر منهم فتحير طومانباى

في امره وافتتن العسكر وكادوا ان يقتل بعضهم بعضا فقال
لهم طومانباي ربما تكون هذه مكيدة من الاعادي كادونا
بها ليفتنونا ولكن الله تعالى يقابل كلا منا بما يستحق ولكن كونوا
على اهبتكم للقاء عدوكم فلما كان يوم الثلاثا اخر شهر ذي الحجة
الحرام جاءت الاخبار بان السلطان سليما دخل الخانقاه ونادى
السلطان طومانباي في عسكره كل من جاء براس ينعي له ما يريد
من كل شيء فصارت فرسان الجراكسة تشن الغارة على عسكر
السلطان سليم وكل من استظفروا به اخذوا راسه وجاؤا بها
الى طومانباي فصار يجزل عطاياهم فساء ذلك قبردي الغزالي
فلما دخل الليل دخل خيمته وكتب كتابا وختمه وذكر فيه جميع ما فعله
طومانباي وانه اخرج المدافع الكبار التي اودعوها على الجبل
هناك وحمل جميع الات الحرب في الريدانيه وقد اشرت عليهم بدفنها
في الرمل لئلا ينظرها احد من الجواسيس فيخبركم بذلك فقبلوا
مني ذلك بعد جهد عظيم مني فاني خشيت على عسكر السلطان
من ذلك البلاء العظيم والصواب ان السلطان يدور ويأتي
من جانب الجبل فيصيرون اذا رموا لا يفيدهم شيئا وارسل الكتاب
الى خيربك فاوصله الى السلطان سليم فسر بذلك واجزل عطاء
القاصد به ورد الجواب ورجع في جوف الليل الى سيده الغزالي ولكل
شيء آفة من جنسه ففي صبيحة ذلك اليوم امر السلطان سليم بالرحيل
الى ملاقاة طومانباي واما السلطان طومانباي فانه اتفق مع
الامير علان والامير كرتباي الوالي ان يتفرق بعضهم عن بعض
ويحمي بعضهم بعضا وقد علموا ان الغزالي ملاحي عليهم وتحققوا
ذلك وقصدوا قتله ولكنهم خشوا ان قتلوه يفتتن العسكر ولكن
توكلوا على الله واخلصوا نياتهم واتفقوا انهم يقصدون سنجق
السلطان سليم فلا يرجعون الا ان يقتلوه او يقتلوا فلما اصبح الصباح

ماطلعت الشمس الا وعسكر السلطان سليم منكب من ناحية
الجبل كالجراد المنتشر من وراء ظهر عسكر طومانباى فارتجوا
لما راوا ذلك وايقن طومانباى بان عسكره ملاح عليه وان
اشارتهم عليه بدفن المدافع مكيدة منهم له ولم يرله حيلة
يحتال بها فما ساعه الا التسليم لله تعالى فيما حل به فلم يرم شيئا
من تلك المدافع مطلقا الا ان رجلا واحدا وكان اخرس رمى
مدفعا يسمى مجنونة رماه وهرب ففتح فى عسكر السلطان سليم
زقاقا فارتج العسكر الرومى وظنوا ان خيربك والغزالى مكروا
بهم فارسل السلطان سليم خلف خيربك وكان قريبا منه
فقال ما هذا الذى ذكرته فى ردم مدافعهم بالرمل فما هذا
الحال وراى منه الغضب فقال لخيربك مهلا على وارسل
جاسوسا يكشف الامر فغاب ورجع مسرعا وقال رأيت
المدافع كلها مردومة بالرمل وانما هذا رجل اخرس لم يردم مدفعه
بالرمل وابقاه مكشوفا وقال انه ضامن لذلك فرمى به
وهرب فاطمأن السلطان سليم واما السلطان طومانباى
فلم ينظر الى شئ وانما قصد سنجق السلطان سليم هو والامير علان
وكرتباى الوالى فلان الوافى مشوارهم وهم يطعنون
بالقنطاريات حتى غاصوا فى جميع عسكر الروم بجملتها فلله درهم
من فرسان لكونهم لقوا هذا الجيش العظيم بنفوسهم وليس الخبر
كالعيان فما زالوا يضربون ويطعنون حتى وصلوا سنجق السلطان
فظن السلطان طومانباى ان الذى تحت السنجق السلطان
سليم فقال له يا سليم انت غرسالم وجذبه من على سرجه بيده
اليسرى ورفعه باعلى راسه وخبطه على الارض فطبق اضلاعه
بين جنبيه وضرب الامير علان من على يساره فازال راسه وكان
معه محمود بن رمضان صاحب اضنه وكذلك فعل الامير كرتباى الوالى

بالامير على بن شهسوار فلما فعلوا ذلك قوى قلبهم واشتفى
غليلهم وبقيت الروم باهتة بأعينهم كأنهم قطيع غنم بلا راعى
فأعقب الفرحة ترحه وظهر ان الذى قتله طومانباى انما هو
الوزير الذى يسمى سنان باشا وسبب ذلك ان السلطان سليما
وخيربك وفرهاد باشا ويونس باشا التفوا من طرف العسكر
ومر عليهم طومانباى عند رجوعه وصحبته علان وكرتباى
وهم ينظرون اليهم فلم يقدر واحد منهم ان يتعرض له ولا يقربه
مع انهم لو علموا انهم هم ما برحوا حتى اخذوهم ولكن الحى ماله
قاتل فرجع طومانباى من حملته تلك فلم ير احدا من عسكره فاذا
به منكسر والعدو فى اثره فكشف عنه هو والاميران المذكوران
وردوا الروم عنهم واذا ببندقية جاءت للامير علان فى قصبة
رجله فكسرتها ودخلت فى جنب الحصان فقتلته لوقته فوقع من
ساعته الا ان الامير علان حمل نفسه وهم عن الفرس قبل ان
تصل الارض وجاؤا له بجنيب فركبه وقد أيس من الحياة فرد
السلطان طومانباى ولوى عنان فرسه الى قناطر بنى وائل فلما
عاين طومانباى ذلك أيس من الحرب ولم يبق معه احد الا كرتباى
الوالى فقصد نحو القلعة وطلعوا من خلفها فلازالوا حتى نزلوا
بركة الحبش وتمادوا الى طرا واما الامير علان فانه مازال سائرا
حتى وصل النيل وعدى لبر المنوفية وذهب الى فلاحه اين
بغداد الامير حسام الدين فلاقاه احسن ملتقى ورحب به
وارسل فجاءله بالجبر وبقى عنده نحو اليومين فرأى من عينه
الغدر وانه يريد ان يقبض عليه ويرسله الى عدوه فلما تحقق
ذلك تأسف على نفسه وامر بأن يشد له الحصان لاجل ان
يشم الهوا فظنوا انه لم يفطن بهم فركبوه فلما ركب جواده طلب
سيفه وترسه وقطارسته فلم يقدر احد ان يتعرض له ولا يقربه

بأغضيه من الشجاعة وكذلك الامام على بن ابى طالب رضى
الله عنه وكرم الله وجهه واما انت فقد لفقت لك عساكر
من اطراف الدنيا من نصارى ومن اروام ومن غيرهما وجئت
بهذه الحيلة التى تحيلت بها الافرنج لما ان عجزوا عن ملاقاة
العساكر الاسلامية وهى هذه البندق التى لو رمت بها امرأة
لمنعت بها كذا وكذا انسانا ونحن لو اخترنا الرمى بها ما سبقتنا
اليه ولكن نحن قوم لا نترك سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم
وهى الجهاد فى سبيل الله بالسيف والعود والله يؤيد بنصره
من يشاء ويا ويلك كيف ترمى بالنار على من يشهد لله بالوحدانية
ولمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة وقد جاء بهذه البندقية
رجل مغربى للسلطان الملك الاشرف قانصوه الغورى رحمه
الله تعالى وقتل قاتله واخبره ان هذه البندقية ظهرت من
بلاد البندق وقد استعملها جميع عساكر الروم والعرب وهى
هذه فأمره ان يعلمها البعض مماليكه ففعل وجىء بهم فرموا بحضرته
فساءه ذلك وقال للمغربى نحن لا نترك سنة نبينا صلى الله عليه
وسلم ونتبع سنة النصارى وقد قال مولانا سبحانه وتعالى
ان ينصركم الله فلا غالب لكم فرجع ذلك المغربى وهو يقول
من عاش ينظر هذا الملك كيف يؤخذ بهذه البندقية وقد كان
كذلك ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فقال له السلطان
سليم حيث كانت فيكم الشجاعة والشجعان والفرسان وانتم
على الكتاب والسنة كما زعمت فبأى سبب غلبناكم ومن ارضكم
اخرجناكم واستعبدنا اولادكم وافنينا جموعكم وها انت
جئت اسيرا بين يدينا فقال الامير كرتباى والله ما اخذتم
ارضنا بقوتكم ولا بفروسيتكم وانما ذلك امر قضاه الله
تعالى وقدره فى الازل وقد جعل الله لكل شىء بداية ولكل بداية

نهاية

نهاية ولكل دولة مدة معلومة وقسمة مقسومة وقد جرت
عادة الله سبحانه في خلقه بذلك اين الائمة المجتهدون واين الملوك
والسلاطين وانت ايضا لابدان تموت وينخرم هذا النظام وما
اظنك الا من الذين قال الله تعالى في حقهم سنستدرجهم من حيث
لا يعلمون واملى لهم ان كيدى متين كيف بك اذا وقفت بين يدى
الله رب العالمين فانحم منه السلطان ولكنه اظهر الحلم وفؤاده
يتوقد من شدة الغيظ لما اغلظ عليه كرتباى واقام عليه الحجج
المسكتة التى ليس لها جواب ثم قال له واما قولك انك اخذتنى
اسيرا فانه كلام باطل وانما جاءني رسولك بكتابك مختوما بختمك
وها هو فظننت انك تقف على قولك فما رأيت من ذلك شيئا ومما ورد
من هذا المعنى المؤمنون عند اقوالهم وايضا المؤمن ان قال صدق
وان قيل صدق وقال مولانا عز من قائل واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم
ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها فازداد السلطان سليم غيظا ولكنه
اظهر الحلم واما خيربك فقد طأطأ رأسه وصار العرق يقطر من وجهه و
وبقيت الوزراء واقفين حولهم ينظرون ويسمعون الكلام ولا
يقدرون على شئ ومما ورد في الحديث الشريف اربع خصال من
كن فيه فهو منافق من اذا ائتمن غدر وان عومل مكر واذا خوصم فجر
واذا قوطع هجر وانت تزعم انك تريد ان تكون خادما للحرمين الشريفين
وانك من اهل العدل والانصاف فما رأينا شيئا من ذلك وانما رأيناك
من اهل الجور والاعتساف يا ويحك كيف تنادى للناس بالامان واذا
جاؤك تخونهم ولكن كفاك ان اسمك سليم خان والله قد رأينا في
التواريخ ان الملوك التى كانت قبلنا من الاتراك والاكراد رحمهم الله
تعالى كان النصارى اذا قالوا لهم قولا وحلفوا لهم عليه او قالوا للنصارى
قولا وعاهدوهم عليه لا يخلفوهم فيه وهم نصارى فكيف بمن يدعي
انه من الملوك العادلة ويريد ان يكون خادما للحرمين الشريفين وهو

حتى كل ساعده ولكن ماذا يفعل الواحد فى مائتى الف واكثر ثم
رجع فلم يرخلفه احدا من عسكره فما زال طانبا نحو الشيخونية
فلم ير احدا وكان قد تواعد مع عسكره انهم ان حصل لهم هزيمة
يكون موعدهم للجيزة ثم ذهب الى مصر القديمة وعدى الى
بر الجيزة ولقيه مماليكه وبعض العساكر حتى صار نحو الالفين
واما السلطان سليم فانه رجع منصورا الى الجزيرة الوسطانية
وارسل الى خيربك فقال له ما الراى عندك قال له ما بقى لهم
بعد هذه الصدمة راس تنقام ابدا قد هرب غالب العسكر
ولم يتبعوا طومانباى فالرأى عندك تنادى لهم بالامان وبعد
ثلاثة ايام كل من وجد عنده جركسى مختفى شنق على باب داره
وكل من كان عنده واحد منهم واخبر السلطان به وقبض عليه
فعليه الامان هو ومن يلوذ به فبقيت اولاد مصر كل من كان
عنده جركسى يأتى الى خيربك ويخبره بما عنده فيرسل له جماعة
يقبضون عليه ويأتى به الى اوطاق السلطان سليم فيضربون عنقه
ويرمونه فى البحر فمن جملة من كان مختبيا الامير كرتباى الوالى فانه
جاءته بندقية فى فخذه فاضرته فما ساعه الا الهروب فاختفى
عند رجل من اصحابه من المباشرين يسمى يحيى بن بكر فلما سمع بالنداء
قال فى نفسه احسن ما يكون وافعل انى اذهب الى اوطاق
السلطان سليم واخبره بأن كرتباى الوالى مختفى عندى وان
يرسل له منديل الامان واقابله به واكتفى شره وتصير لى يد عند
السلطان فجاء الى اوطاق السلطان سليم واجتمع به مع خيربك
ففرح السلطان بذلك واوعده بأن يعطى له اى منصب شاء
وارسل معه منديل الامان والمصحف وكتب له كتابا ان جاءه
وقابله لا يفعل فيه شيئا وعليه الامان ولا يرى منه الا ما يسره
فرجع ابن بكر الى كرتباى الوالى وبشره بالفرج وانه اجتمع مع السلطان

سليم واعطاه منديل الامان وها هو وحسن له عباره في المقابلة
وانه يصير آمنا على نفسه وماله وعياله فدخلت راسه الجراب
واجاب الى المقابلة وقام من ساعته وركب معه الى وطاق
السلطان سليم فلما راه خيربك فرح به فرحا بورث ترحا وقال
له يا امير كرتباى اين عقلك تتبع هذا المجنون المخاطر بنفسه يشير
الى طومانباى فسوف ترى كيف تاتى به ذليلا حقيرا ولكن حيث
جئت طائعا مختارا فما بقى عليك خوف بعد اليوم ثم دخل خيربك
على السلطان واخبره بمجئ كرتباى الوالى فخرج السلطان الى ظاهر
الخيمة وجلس على كرسى نصب له ونظر الى كرتباى الوالى وقال له
انت كرتباى قال نعم فقال اين فروسيتك واين شجاعتك قال
باقية على حالها قال اتذكر ما فعلته مع عسكرى قال اعرف ولا نسيت
منه شيئا قال ما فعلت بعلى بن شهسوار قال قتلته مع جملة من
قتلتهم من عسكرك بعد ان عرف من عين السلطان الغدر وانه يقتله
ولا بقى له منه خلاص فترك الادب وتكلم كلام من أيس من الحياة
وجعل عينه فى عين السلطان ورفع يده اليمنى فى وجه السلطان
وقال له اسمع كلامى واصغ اليه حتى تعلم انت وغيرك ان منا
فرسان المنايا والموت الاحمر ولو يلقى واحد منا بعسكرك وحده بنفسه
واذا لم تصدق فجرب فامر عسكرك ان يتركوا ضرب البندق
فقط وها انت معك مائتا الف من جميع الاجناس وقف مكانك
وصف عسكرك ويخرج لك منا ثلاثة انفار انا عبد الله والغارس
الكرار السلطان طومانباى والامير علان وانظر بعينك كيف
تفعل هذه الثلاثة تبقى تعرف روحك ان كنت ملكا او يصلح لك
ان تكون ملكا فان الملك لا يصلح الا لمن يكون من الابطال المذكورة
كما كان عليه السلف الصالح رضى الله عنهم فانظر فى التواريخ
ما كان من الامام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وخذلك

مع انه لو علم انهم كذا ما كان يقرب اليهم ولما ركب
على حصانه التفت الى الامير حسام الدين وقال له ستنظرون
امر والحكم بعدنا يا خونة الله يخون الخائن ولوى عنان جواده
فلم يتبعه احد وكلما لاقته سرية عرب يقول لهم انا علان
فلم يقدر احد ان يقربه فلا زال حتى عدى الجيزة وقصد نحو الصعيد
فلا زال حتى دخل بلدا في اقليم البهنسا يقال لها نويرة فنزل عن
فرسه واستقبل القبلة فمات رحمة الله تعالى عليه فصلى
عليه اهل البلد ودفنوه في زاوية هناك واما السلطان طومان باي
فانه لما رجع من الحرب لم يجد احدا من عسكره الا وقد ولى منهزما
من كثرة البندق والضرب بالزانات فلم يستطع احد ان يقف امام
ذلك فطلع من وراء القلعة وقصد ناحية طرا والعدوية وتبعه
بعض العسكر يقفون اثره سرية بعد سرية الى ان سار معه سبعة
الاف فارس الاعيان منهم الامير قانصوه كرت وقانصوه رجله
وقانصوه الفاجر وانس باي حاجب الحجاب وخشباي امير مجلس
وسار بك الاعور والامير قانصوه العادلي كاشف المنوفية
وازبك المكحل وتاني بك النجمي والباقي مماليكهم واتباعهم واما
الامير جانبلاط فانه قد تجوه في قلب العدو وما بقى يقدر على الهرب
فلما أيس من نفسه صار يقاتل الى وراه فلا زال كذلك حتى وصل
الى قبة الهواء فبطل جواده فنزل عنه وصار يقاتل راجلا يعني
ماشيا فلما راته الروم راجل طمعوا فيه وقالوا هذا رجل ونحن
رجال فانطبقوا عليه كالجراد فصادفته ضربة زان فوقع الى
الارض ووقعوا عليه بالسيوف حتى صار لا يعلم له راس من رجل
وكذلك الامير قانصوه رجله في الرميلة وما بقى من عسكر
الجراكسة منهم من قتل بالبندق ومنهم من هرب ومنهم من تبع
السلطان طومان باي وباتت مصر ليس فيها جركسي الا اذا كان

مخفيا فعند ذلك دخل خير بك على السلطان سليم واخبره بما وقع
وانه امر بارسال صوباشى فملك القلعة وليس فيها احد غيره
والرأى لما يراه مولانا السلطان فشكره السلطان على ما فعله
من تمليكه ملك مصر الذى مانت بحسرته الملوك فقال السلطان
صف لى مصر كانى انظر اليها فوصفها له من اولها الى اخرها فاختار
النزول على شاطىء النيل فى الجزيرة الوسطانية وانما طلع الى
القلعة ساعة وجلس على المصطبة التى تجاه الديوان ثم نزل على
الفور خيفة على نفسه من الغدر من احد من الاعادى وبات
فى الجزيرة ثم انه شرع فى ارسال العسكر الى طومانباى فلم يجدوا
بمصر جركسيا وباتت مصر ليس فيها منهم احد واما طومانباى
فانه سار بمماليكه الى ناحية طرا والعدوية وتبعته العساكر
الجراكسه حتى بقى معه سبعة الاف خيال فاقتضى رأيهم بالرجوع
الى مصر وان يحاربوا اعداءهم حتى يفنوا عن آخرهم فرجع طومانباى
ونزل فى الشيخونية وتفرقت العساكر فى الحارات فقتلوا من الروم
نحو العشرة الاف او اكثر فى ليلة واحدة ثم اصبحوا فجاءتهم عساكر
الروم من جهة الكبش ومن جهة حدرة الحنة فاقتتلوا مرات عديدة
وظهرت الجراكسة على الاروام وقتلوا منهم نحو خمسة عشر الفا فى
ثلاثة ايام وفى كل مرة يرجع الروم منهزمين فعند ذلك اقتضى
رأى السلطان سليم ان يركب هو بنفسه ويأتى من جانب القرافة
ويلتقى طومانباى فى الرميلة فاما له واما عليه ونوى ان وقعت
الكسرة عليه يتم سائرا الى بلاد الروم فلما فعل ذلك وجاء الى
الرميلة اطبق الجو من ضرب البندق والضرب بالزانات فلما سمع الجراكسة
ذلك بعدوا يعدان كانوا غالبين مستبشرين بالنصر وهرب
غالب عسكرهم وقالوا من يقابل هذه النار المهلكة واما طومانباى
فانه لم يهرب وحطم عليهم حطمة الاسد الغضبان وقتل فيهم قتلا

لايصدق فى قوله والكذب سيمة المنافقين فلاحول ولاقوة الا بالله
العلى العظيم فلايغرنك ما انت فيه وما اصبحت دولتك فيه من
الاقبال فانه لابد لكل اقبال من دبار ولكل جمع من تفريق ولكل اجل
من انصرام ولكل توفيق من اختلاف ولكل فرح من ترح وقد كنا اقوى
منكم واشد باسا واعظم مراسا وانظر كيف فعلت بنا هذه الدنيا
الغدارة المكارة وبعد ما حصل لنا ذلك انا بينكم واحد بمفردى
أؤمر عسكرك ان يضربوا على يزك ويسيروا الى ما ئة بما ئة او ومائتين
بمائتين والف بألف وانظر ما اصنع فيهم كل ذلك والسلطان سليم
ساكت يسمع قول كرتباى وجراءته على هذا الكلام واستحضاره
هذه الاجوبة مع انه متحقق الهلاك ولامحالة ثم قال باى سبب تذمنا
فى قولك وتزدرينا وتسبنا والله لايهمنا كثرة جموعكم ولا رميكم
ببندقكم واحجاركم وانما كان السبب لزوالنا خلف حصل بيننا فنظر
السلطان الى خيربك واشار اليه بأن يقرب منه حتى يشاوره فى امر
كرتباى الوالى فلما وقف قدام الكرسى قال له ما تقول فى هذا الرجل
وجوابه وقوة قلبه ان قتل مثل هذا لايليق وافتخر بمثل هذا فى عسكرى
واجعله سنجقا فاصفر لون خيربك وقال يا مولاى ان ابقيت عليه
وجعلته وزيرا لايبقى عليك هذا المعاند الباطل والكلب الجاهل ويفسد
جميع عسكرك وما قال ذلك خيربك الا بغضا فيه وفى ابناء جنسه
فقال له السلطان فما الراى قال اضرب عنقه بلا تأخير وتأخر
خيربك ووقف مكانه ولونه مصفر متغير فعرف الامير كرتباى انه حسن
له قتله فقال الامير كرتباى للسلطان ان هذا قائدك الى جهنم اصنع
ما شئت من لم يمت بالسيف مات بغيره فعند ذلك نظر السلطان
اليه نظرة الغضب وقال له انى اردت ان اعتقك وافرج عنك
واجعلك اميرا من امرائى فرأيتك قليل الادب جرئ اللسان فتحدث
فى مجلسى والذى يدخل على مجالس السلاطين بلا قيمة يخرج بلا قيمة

فقال

فقال له كرتباى الوالى معاذ الله ان اكون من امرائك ومن اتباعك وانت بهذه الصفة فنادى السلطان باعلى صوته وقد احمر وجهه من شدة الغيظ وقال اين الجلاد فتقدم نحو مائة وخمسين جلادا قال اضربوا عنق هذا الملعون الجركسى فقال كرتباى قطع راسى وحدى لا يفيدك منه شئ فان وراءى ابطالا وشجعانا وكفى بالسلطان طومانباى نصره الله فلما سمع السلطان بذلك امر بالسياف ان يضرب عنقه فقال له والسيف فوق راسه اذا قطعت راسى خذها وهى بدمها بيدك واجعلها فى كس امراتك يا من يخونك الله فضربه السياف فطير راسه قدامه وذهب الى حاله واما السلطان طومانباى فانه لما وقعت الكسرة على الجراكسة كان وعدهم قبل ذلك وقالوا ان جاءت الكسرة علينا يكون ميعادنا بر الجيزة فلما كان كذلك عدى الى بر الجيزة وتبعه بعض الجراكسة حتى صار معه الفا خيال لكن فيهم كل فارس يقوم بالف فارس الا ان الكثرة غلبت الشجاعة والنار لا يقابلها احد ولولا النار التى مع السلطان سليم ما غلبهم فى الحرب ولا مرة ولكن اذا اراد الله بامر بلغه ولله فى هذه ارادة فذهب السلطان طومانباى الى نحو الصعيد وقصد هوارة وطلب منهم النصرة وان يرفع عنهم الخراج ثلاث سنين فابوا وقالوا قد بلغنا ان الروم تقاتل بالنار ومن يطيق النار فانثنى راجعا وتبعه من العربان نحو سبعة الاف فارس محبة فيه فانه كان رحمه الله تعالى محبوب الصورة لكل احد ولكن اذا تم الامر قرب زواله اذا قيل تم فلم يزل قادما حتى وصل الى قرب اطفيح فراى قلوعا بكثرة وهى مقلعة فلما عاينها وقف وقال ما اظن الا ان السلطان سليما جاءنا او ارسل الينا جيشا قال فلما عاينوا بعضهم بعضا دخلت المراكب البر وطلع منهم من الرماة نحو خمسة الاف رامى بالبندق والضربزانات ومن المدافع خمسون وكان القيم على ذلك رجلا يسمى

جانم السيفى كاشف الفيوم فانه جاء مع السلطان طومانباى بعد كسرة الريدانية واجتمعوا عند طرا والعدوية واتفق رأيهم بان يكبسوا على السلطان سليم بالجزيرة الوسطانية التى بين بولاق وقصر ابن العينى فلما علم ذلك جانم قال فى نفسه احق ما افعل انا اذهب الى السلطان سليم خان واخبره بذلك واخذ لى منه الامان واكون من حزبه فان دولتنا قد ولت فخرج ليلا من عسكر السلطان طومانباى هو وامير آخر يسمى ابو حمزة ومعهم مماليكهم نحو المائتين فلما اصبحوا علموا ان جانم السيفى قد خرج ليلا فاستقصوا خبره فقال بعض الاجناد للسلطان طومانباى قد سمعناه وهو يقول ان الذى يريد السلامة لنفسه يتبع السلطان سليما فانا سمه سليم ومن تبعه سلم ومن عصاه ندم فتكدر السلطان طومانباى وقال سيندم حيث لا ينفعه الندم وهل يرجى من العدو خير ولكن لا دافع لله فيما قضى فلما اجتمع جانم السيفى بالسلطان سليم واخبره انه جاءه راغبا فى طاعته وان طومانباى قد عول على كبسه فى الليلة القابلة أخذوا اهبتهم واستيقظوا لانفسهم فجاءت الاخبار لطومانباى بأن جانم السيفى دخل فى طاعة السلطان سليم واخبره بأنك تريد ان تكبس عليه فأخذوا اهبتهم وعبوا النار من كل جهة فان فعلت شيأ من ذلك هلكت نفسك واهلكت من معك فاعرض عن ذلك واقتضى رأيه ان ينزل فى الشيخونية ويحارب كما تقدم ثم انكسر وذهب الى الجزيرة فلما علم السلطان طومانباى ان هذه المراكب ما جاء بها الا جانم السيفى فانه لما اجتمع بالسلطان سليم وعرف صدقه وامانته كان السلطان كلما يجلس فى ديوانه يرسل خلف خيربك وجانم هذا ويأمرهم بالجلوس بحضرته ويستشيرهم وبما فيه الصواب ويظهر لهم انه ان تمكن على ملك مصر يعطى خيربك باشويته الى ان يموت اقطاعا ويعطى لجانم الفيوم اقطاعا ثم قال

لهم قصدى ارسل لطوما نباى جيشا لعل ان اظفر به فقالوا له حبا
وكرامة قل ما شئت فانا لامرك طائعون ولرأيك سامعون فقال
من يكون باشا على العسكر فقال جانم السيفى أنا اكفيك ذلك ان
شاء الله وارجو ان لا ارجع الا براس طوما نباى واقبض عليه
قبضا باليد واتى لكم به اسيرا فشكره السلطان على ذلك فارسل
معه خمسة عشر الف راكب وخمسة الاف رامى بندق وخمسين
ضربزانات وخلع عليه خلعة وخرج خرجة اطبقت الجوحين
اقلع ورمت الرماة طلقا اظلم الدنيا وايقنت الناس ان طوما نباى
لا طاقة له بهذا الجيش وخصوصا جانم السيفى مقدم عليهم وكان
جانم هذا من الابطال المشهورة والشجعان المخبورة فلما عاين
عسكر طوما نباى امر بدخول المراكب الى البر وسيبوا اطلقا تزلزلت
الارض منه وارسل الى طوما نباى يقول له فى غد الحرب بيننا
وبينك فقال طوما نباى حبا وكرامة

ذكر التقاء طوما نباى مع جانم السيفى

قال فلما اصبح النهار تصافوا للحرب فاما العرب التى كانت تجمعت
مع طوما نباى فانهم لما راوا هذه النيران قالوا لبعضهم ومن
يطيق هذا الامر المهلك لا يقاتل هؤلاء الا مجنون او فارغ من الحياة
ولكن نحن نرتفع عن هولاء الى بعد فكل من رأينا الكسرة عليه
نهبناه هذا ما كان من امر العرب واما السلطان طوما نباى
فانه ثبت للحرب ولم يتأخر من مكانه فكان اول من خرج فى حومة
الميدان جانم السيفى ونادى باعلى صوته لا يبرز لى الا الامير طوما نباى
ولعب اندابا فى الميدان حتى ادهش الناظرين وقوى قلب الروم
حين راوا منه ذلك وقالوا اما يقاوم طوما نباى فى الفروسية
الا هذا البهلوان وصاروا يشكرونه فكلما سمع منهم ذلك زاد فى
لعب الانداب حتى تعجب الحاضرون من الروم ثم بعد ذلك وقف

فى حومة الميدان وقال للجراكسة اين فرسانكم اين شجعانكم فخرج
من بينهم فارس كانه الباشق اذا انقض على الصيد وقال لا غرتك
نفسك يا جانم وخنت ابنا جنسك فسود الله وجهك يا خاين
فقال له بطل الكلام وابرز للضرب بالحسام فقال اصبر حتى
اريك لعب الانداب وكان ذلك الفارس هو الامير دولتباى
كاشف الجيزة فلعب فى الميدان اندابا فاق عليه فتعجب الروم ثم
التطم الاثنان فوقع بينهما من الحرب ما حير النظار من اول
النهار الى الظهر فلما آيس جانم من خصمه رمى الرمح وسحب السيف
وضرب دولتباى على خودته فقطعها وجرحه جرحا غير بالغ
فلما ساح دمه عيطت الروم باجمعها آفرم آفرم فقوى قلب جانم
وضرب خصمه ضربة ازال رمحه فبقى الرمح فى يد دولتباى من غير
حربة فالغت الركيز وحذفه على جانم فدخل الركيز فى جنبه ونشبت
بين اضلاعه فوقع عن جواده فنزل دولتباى ليقطع راسه
فاندلقت عليه الروم بجملتها فلم يتمكن من عدوه فما ساعه الا ان
تركه وانثنى على جواده والتطم الجيشان فلله در ألفين تقاتل
فى عشرين الفا وتكسرهم حتى وقفوهم فى مراكبهم وكان النهار
قد ولى فنزل عسكر الروم الى المراكب وعدوا الى ذلك البر واما
السلطان طومانباى فانه بات فى البر الغربي فلما جن الليل جلس طومانباى ودعى الامير
شرباك الاعور وبقية الامرا وضربوا المشورة فاقتضى الراى ان يقتسموا
الى فرقتين فرقة مع الامير شربك وفرقة مع السلطان طومانباى
وان يذهب الامير شربك الى بعد ويقف السلطان طومانباى
فى موضع المعركة فان عدى الاروام وجاوا لنا اخذناهم مواسطة
فاتفقوا على ذلك واما العسكر الرومى لما اصبحوا قالوا لجانم ما الراى
عندك قال نذهب للحرب اما بنا واما بهم ولا نرجع عنهم لعلنا
نظفر بهم فلما راوا جانم مصمما على الحرب قالوا له انت مجروح وليس

لك قدرة على الحرب فقال لهم انا واحد وانتم الوف لاتحتاجون الى واحد وكان المخاطب له اغاة الينكجرية فلما سمعوا منه ذلك قالوا صدق فى قوله فعدّوا الى البر الغربى وطلعوا الى موضع المعركة فرآهم الجراكسة فبادروهم بالحرب والتطموا معهم فبينما هم فى قوة الحرب واذاهم بالامير شربك الاعور قد دهمهم من خلفهم بعدان اخذ المراكب التى على الساحل بجملتها فما انفك منه غير مركبين وارسل الجميع مع عشرين جنديا الى الجانب اوطاق السلطان طومانباى وانطبقت على الروم الفرقتين من الجراكسة وهم كل فرقة نحو الثمانية الاف والروم نحو العشرين الف غير العربان فما مضى غير ساعة حتى انكسرت الروم وقصدت المراكب فلم تجدها فانقطعت قلوبهم وتبعتهم الجراكسة فافنوهم وما نجى منهم سوى جانم وابو حمزة واغاة الينكجرية المسمى باياس اغا فانهم لما انهزموا قصدوا المراكب فلم يجدوها فاطلقوا عنان خيلهم على شاطئ النيل فتبعهم فانصوه لكن كان بينه وبينهم مسافة رأى العين فلم يدركهم فنجوا بنفوسهم فقط وجميع ما كان معهم من الضربزانات والبندقيات وآلات الحرب وغيرها كله بجملته غنمته الجراكسة واما جانم ورفقته فانهم لازالوا راكبين على شاطئ النيل حتى لحقوا بالمركبين اللذين انفلتا من الامير شربك فما صدّقوا ان نزلوا فيهما وارخوا فى التيار فلما رآهم فانصوه العادلى قد طلعوا فى المركبين أيس منهم ورجع متأسفا لكونه لم يبلغهم وكان السلطان طومانباى افتقد من قتل من عسكره فوجدهم الفين وثلثمائة غير العربان وكلهم من البندق فلما رجع جانم وابو حمزة والاغا منهزمين وقتل غالب عسكرهم وعلم السلطان سليم بذلك كاد ان ينفلق قلبه من شدة ما حصل له من القهر والغم وارسل خلف خيربك وقال له قد غررتنا واد خلتنا فى بلاد هؤلاء ولا احد يسهل عليه ترك بلاده ولو ان طومانباى اعطانى الخطبة والسكة باسمى لرجعت عنهم من الشام وما كنت دست

هذه الأرض برجلى ولا كنت مائلا على دماء رقابهم ولا على مالهم واولادهم من حين دخلنا انا كنت احسب انهم زمرة قليلة وشرذمة ذليلة وانه جمع على راسه جماعة من بقية سيوفنا وحصل منه ضرر على عسكرنا نحن من الدوحة المباركة العثمانية لا نرحم كبيرا لكبره ولا صغيرا لصغره سيوفنا لامعة على رؤس اعدائنا فمن طلب حربنا ندم ومن قصد اماننا سلم وانا الذى هدمت الدولتين فى ركبتين والسلاطين تفتخر بعبوديتنا والرمال تعد ولا تعد كثرة عساكرنا من تقرب الينا شبرا تقربنا اليه ذراعا ومن تقرب الينا ذراعا تقربنا اليه باعا وان للحرب دأبنا والجهاد صنعتنا نحن من الشجرة الطيبة التى اصلها ثابت وفرعها فى السماء ويوم الحرب نمطر من سماء غضبنا نحاسا ورصاصا من السماء على اعدائنا والذين هم كاصحاب الفيل نرميهم بحجارة من سجيل فيصيح كل مدفع من مدافعنا صيحة الرعد وفيه البرق والسحاب الثقيل وان هذا المتغلب الجاهل وفرعون الباطل ما هو اكبر من سلطان العجم ولا من الغورى فانهم لم يقدروا ان يقفوا امامى يومين كاملين فكيف يلم العرب والجراكسة ويعارك مع عسكرى ويعمل عليهم حيل اليهود وعندى عسكر لا يقف عليه سلاطين العالم واذا عاز مثله الى عسكر بفرد حكمى يجيبونه عسكر من دار سلطنتى اولهم يكونون فى مصر وآخرهم يكون فى القسطنطينية وما مراد هذا الكافر الفاجر هو وغيره والغورى وقايتباى كانوا مماليك لنا اى شئ كان لهم نسبة بالسلطنة لا تليق السلطنة الا لنا لان جدنا سلطان بن سلطان بن سلطان الى سيدنا نوح عليه السلام وشغلنا الجهاد والقتال للكفار والروافض واهل الطغيان والعدوان فقال له خير بك يا مولانا السلطان ان طومانباى رجل عاقل وانا اعرف انه ليس له رغبة ان يكون ملكا ولا له على السلطنة استحقاق وانما عبدكم الغورى اوصى جميع امرائه انه اذا اصابه شئ لا يسلطنون عليهم

الا طومانباى لما يعلم من عقله ودينه وفروسيته وشجاعته فانه فريد عصره وبعده شريك الاعور والامير علان الذى قدمات وجاء خبره انه جاءته ضربة فى فخذه كسرته وكرتباى الوالى الذى قطعت رأسه فقال له السلطان سليم انت اغررتنى وطمعتنى فى اخذ هذا الاقليم فانظر كيف تصنع ودبر نفسك كيف تعرف والا فهى راسك واغتاظ السلطان سليم من خيربك غيظا عظيما فخرج من عنده وهو اعمى اصم لا يعلم كيف يصنع فلقيه يونس باشا الوزير الاعظم فقال له ما خبرك فاخبره بما قال له السلطان سليم فقال الوزير والله صدق السلطان فى قوله والله لو سمع قولى لاشرت عليه بأن ينادى فى عسكره بالرحيل ونرجع الى بلادنا واوطاننا وما نعرف كيف صارت احوال بلادنا من هجوم الكفرة والرفضة فانك لاجل غرضك وكراهتك لابناء جنسك جوزتنا بين هولاء الملاعين وابعدتنا عن بلادنا فخاف خيربك على نفسه وحسب حساب يونس باشا انه يكرهه وربما يتكلم مع السلطان سليم فى حق خيربك ويقتله فانثنى خيربك راجعا الى خيمة السلطان واستأذن فاذن له فى الدخول فقال له السلطان ما الذى دبرته من الراى قال ليعلم مولانا السلطان انى ما جئتك الا راغبا فى طاعتك ومحبة لك وآثرتك على جميع ابناء جنسى وقد اطلعت على بعض الملاحم فرأيت الرموز تدل على انك ستملك هذا الاقليم وتصير سلطان الحرمين ولكن يا مولانا السلطان اريد منك فرد شى وهو انك لا تقبل فى حقى كلام احد الا بما يقتضيه رأيك السديد فان اقتضى رأيك ان تقتلنى فافعل فقد حللتك دمى فتبسم فى وجهه السلطان وقال له لولا تحقق محبتك ما اطعتك وجئت معك الى هنا ولكن كن بنا فى تدبير ما فيه الصلاح فقال والله يا مولانا السلطان لا ابقى ممكنا فى نصرتك ولو بروحى الا فعلته فشكره السلطان على ذلك

وامر له بخلعة عظيمة فلما رجع من عند السلطان وهو لابس الخلعة
ورآه يونس باشا وهو قادم عليه علم ان خيربك دخل على عقل
السلطان ومشى معه على مراده فقام له وبجله ظاهرا مع الكراهة
له باطنا فقال له ما الذى اقتضى رات الامير قال ما يكون الا خيرا
وارجو من الله تعالى ان يمكننا من طوما نباى ونأتى به اسيرا بين
يدى السلطان فقال له يونس باشا ان شاء الله تعالى بسعد دولة
سلطاننا فلما رجع جانم وابو حمزة واياس اغا الى اوطاق السلطان
سليم تكدر السلطان وندم على ارسال جانم ثم انه عمل ديوانا فلما
حضرت الوزراء والامراء قال اين خيربك فجاء ووقف بين يدى
السلطان فقال له ما تقول قال الامر امرك ونحن بين يديك مهما
امرتنا به فعلناه ولو كان فيه هلاك ارواحنا قال السلطان ان
قلبى حس من الاول ان جانما ليس هو كفوا لطوما نباى ولكن انا اريد
ان ارسل له كتابا بالامان مع قاصد عاقل يرد الجواب فلعل الله تعالى
ان يهديه ونبقيه على بلاده واخبره انى رضيت منه بالاسم فقط
بان اصير سلطان الحرمين وتصير لى مزية على ملوك الارض ويجعل
الخطبة والسكة باسمى واعطى له مصر الى ان يموت فقال خيربك
يفعل مولانا السلطان ما يقتضيه رأيه فى ارسال الاولاق
ولكن انا اعرف انه معاند وجاهل لا يوافق على شئ من ذلك وربما
يقتل القاصد فقال السلطان اذا لم يوافق والا انا القاه بنفسى
والله يؤيد بنصره من يشاء فعند ذلك ارسل قاصدا يسمى مصطفى
وكان عارفا عاقلا طلق اللسان اديبا وارسل معه ايضا خمسمائة
نفس لان الطريق كانت مخيفة من العربان فلما وصل الى وطاق
السلطان طوما نباى وكان بالقرب من ناحية منية ابن خصيم
ترجل عن فرسه ونزل هو وجميع من معه فاستأذن فى الاجتماع
على السلطان فاذن له فاوصل المكاتيب للسلطان طوما نباى فقرأها

واعطاها للامير شربك فانه قد ارسل لكل امير كتابا بخصوصه يخبرهم بانه لاحاجة له ببلادهم وانه ما يريد الا الاسم فقط وان كل من قابله خلع عليه واعطاهم مرسوما بالامان وانتم على ما انتم عليه وانتم فى امان الله تعالى والله يخون الخائن واوثق كلامه بايمان واقسام فقال السلطان طومان باى ما تقولون يا اغوات فقال الامير شربك اما رأيي فنقتل هؤلاء الطائفة التى ساقتها العناية الالهية الينا لنكتفى من شرهم واما انت ان ملت نفسك الى طاعة عدوك فاعلم ان ما بينك وبين الهلاك الا ان تصل اليه وتقف بين يديه فتصير الامانة خيانة والعزة اهانة وتكون كالذى القى بنفسه الى التهلكة وطلب منها السلامة وندم حيث لا تفيد الندامة واما انا فلا ادخل تحت طاعة عدوى فلتعلم ان ما بينك وبين الهلاك الا وصولك وتقف بين يديه فتصير الامانة خيانة والعزة اهانة وتكون كالذى القى نفسه فى التهلكة فلا ادخل تحت امان العدو فى عمري ولا مرة واحدة وذلك لانى اعرف ان ما آخر كل حياة الا الممات وقد جعل الله تعالى لكل شئ ميقاتا فان دخلت تحت طاعته لا يزيد فى عمري لعلمي ان الموت لا مفر منه وان كل حى لابد له من الموت فاقتضى رأيهم ان يقبضوا على القاصد الذى جاءهم ومن معه وان يضربوا رقاب الاولاقية فهرب الذين جاوا معه الى السلطان سليم ثم امر السلطان طومان باى بالمسير الى جهته فلم يزالوا سائرين حتى اشرفوا على بركة الحبش فرأوا بها اوطاق السلطان سليم وهم من ذلك البر على بعد فوقفوا ينظرون ويتأملون ويضربون الرأى كيف يصنعون وعلموا ان السلطان سليما انما خرج الى بركة الحبش مريدا للحرب ويريد ان يعدى الى بر الجيزة فبينما هم واقفون واذا بكردوس من الخيل قادم اليهم واذا به الامير زمك الناشف فقدم على السلطان طومان باى وقبل يديه واعتذر له بانه كان معذورا بسبب جراحة اصابته

يوم الريدانية واخبره بأن قانبردي الغزالي كان رأس الملاحين عليهم حين اخرجوا المدافع وأمرهم بردمهم تحت الرمل وكان هذا غاية المعاكسة لهم فقال السلطان طومانباي والله اني عرفت انه ملاوحي علينا من اول مرة لما ارسلته بالجيش فقتل اكثره وانهزم فعلمت انه بالقصد منه واما السلطان سليم فانه لما جاءه جانم وابو حمزة منهزمين واخبراه بما جري لهم وان السلطان طومانباي قادم بجموعه التي جمعها فار تاب السلطان سليم فعند ذلك امر يونس باشا بان يرسل ويأتي بالامراء المسوكين عندهم فانهم كانوا قد نادوا لهم بالامان وكان ذلك مكيدة من خيربك فبقوا كل من يأتيهم بالامان يحبسونه ويوعدهم خيربك بأنه اذا تم الامر للسلطان سليم يطلقهم ويبقيهم على مراتبهم ومناصبهم التي كانوا عليها وباطنه بخلاف ذلك فلما جاءت الاخبار للسلطان سليم بان السلطان طومانباي قتل القاصد الذي ارسله السلطان سليم وجميع من معه اغتاظ لذلك غيظا كبيرا وارسل احضر الامراء المحبوسين بقلعة الجبل من الجراكسة وامر بضرب اعناقهم اجمعين وكانوا نحو الستين اميرا منهم ما هو امير مائة مقدم الف ومنهم من هو امير اربعين ومنهم من هو امير عشرة فلما حضروا بين يديه سألهم عن مناصبهم فأخبروه فقال لهم السلطان سليم لم تركتم ملككم وجئتم الى عدوكم قالوا اثرنا خدمتك على طاعته واخترنا ان نكون من اجنادك فقال لو كان فيكم خير كان لطومانباي فعند ذلك امر بضرب اعناقهم بين يديه وهو ينظر اليهم فأول من ضرب عنقه نقطباي نائب القلعة ثم انس باي حاجب الحجاب ثم تمر الزردكاش ثم اركماس امير سلاح ثم الامير ازبك المكحل صاحب البيت الذي كان فيه المرحوم الامير عثمان قاسم مقام ثم الامير قانصوه الفاجر ثم الامير مغلباي الزردكاش ثم الامير قانبك رأس نوبة ثم الامير ماماي المحتسب وهو صاحب بيت قاضي العسكر ثم الامير يشبك ملوخية ثم جانبلاط الابح وكان قد عمله

السلطان طومانباى نائب القلعة ثم الامير خيربك الخازندار ثم خيربك
المعمار ثم بقيه الامراء الذين كانوا جاوه بالامان حتى صار الموضع
كالجزيرة ثم امر السلطان سليم بالتعدية الى البر الغربى فكانت كل تعدية
يكون فيها نحو الالفين او اكثر من الروم واما السلطان طومانباى
فانه كان واقفا يترقب نحو ربوة عالية واقام وحدا ينظر له الخبر
فلما اخبر بأن الروم وصلت الى البر قال فى نفسه احسن ما يكون ان
اقطعهم اول بأول فعند ذلك رمح عليهم رمحة واحدة فما شعروا الا
وهو كابس عليهم واوقع القتل فيهم فما وصلت التعدية الثانية الا
وقد افنى غالب الاولى فارتج عسكر السلطان سليم وتشتت امرهم
فمنهم من قتل ومنهم من انقلبت بهم المراكب بما فيها فحصل للسلطان
كرب عظيم وندم على فعله ذلك وقال لو اشار على احد بذلك
لقتلته اشد قتلة ولكن يهون الله تعالى فعند ذلك امران لا يعدى
احد وان يصفوا ضربزانات على شاطئ النيل ويرموا بها على الذى فى
ذلك البر من الجراكسة فرموا عليهم طلقا ادوى بر الدنيا فبينما هم فى
تلك الحالة واذا هم بغبار قد طار من خلف ظهرهم وصيحات وعياط
وخيل قد ملات الوادى فوقفوا ينظرون ما هذا الامر فلما قربوا
منهم واذا بهم عرب غزالة يقدمهم حماد بن خبير واخوه سلام
وكان سلام هذا بطلا لا يطاق فبادروا السلطان طومانباى
بالسب والشتم والكف عن محاربة السلطان سليم وقالوا له انك
ترجع عن محاربة السلطان سليم والا كنا كلنا عليك ونأخذك مواسطة
ولكن ارجع الى حيث شئت واخرج من ارض مصر فانكم قد قتلتم منا
خلقا كثيرا فى ايامكم ولا منكم وما منا من احد الا وله احد قد قتلتموه اما
اخوه واما ابوه واما قريبه وقد ازال الله تعالى دولتكم وجاء
بهذا الملك العادل فقال لهم طومانباى ستنظرون ان اروا حكم بعدى
وكف السلطان طومانباى وانثنى راجعا بعدان خادعهم بالكلام

فلم يقبلوا منه قولا مطلقا فقال لا حول ولا قوة الا بالله العلى
العظيم اعلموا يا اخوات ان دولتنا قد زالت واجالنا قد مالت وما
بقى لنا فى هذه الديار نصيب ولكن لنا اسوة بمن كان قبلنا وانظروا
الى هذه الحالة وما النصر الا من عند الله وقرأ قوله تعالى ان ينصركم
الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده فما الرأى
عندكم قالوا انه الرأى ما تراه وها نحن بين يديك كما تفعله نحن موافقون
لك عليه فقال لهم سيروا بنا الى جهة الهرم فساروا فبينما هم
سائرون واذا بكردوس من الخيل قد موا عليه فارسل ينظر من هؤلاء
واذا به الامير قيت رجبى الذى كان محبوسا بالاسكندرية وقد كان
حبسه السلطان الغورى وكتب على قيده مخلد فلما تسلطن طومان باى
وحصل له ما حصل تذكر قيت رجبى هذا وكان من الفرسان المجبورة
فقال احق ما يكون ان ارسل فاطلق قيت رجبى واخلع عليه ليكون
لنا عونا على هؤلاء الاعداء فكان مجيئه فى هذا الوقت فقبل يد
السلطان طومان باى وتلقته الامراء ولبسوه خلعة السلطان
وسار معهم الى جهة اهرام الجيزة وبكوا بكاء كثيرا وحكوا له ما وقع
للغورى وما جرى لهم من اوله الى اخره فقال لهم بالله المستعان
وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ولا تستعينوا
الا بالله وكان من اهل الرأى والدين وكان قارئا كاتبا عارفا باداب
الحرب ولهذا حبسه السلطان الغورى خوفا من ان يدبر عليه امرا
ثم قال الامير قيت رجبى يا مولانا السلطان اختير عندى ان
نجعل هذه الواقعة نظما ونكتبها على هذا الهرم ليكون لنا بها
الذكر على ممر الدهور والايام وكان بازاء الاهرام فقام السلطان
والامراء الى الهرم الغربى فوقفوا عنده قال الناقل فاخذ السلطان
طومان باى ينشد والامير قيت رجبى يسمع والامير شريك
يكتب على الهرم هذه الابيات التى جاءت من احسن المعلقات تتضمن

جميع ما جرى لهم من اول الحرب الى آخره نظما حسنا وهى هذه الابيات

دموع العين فاضت من اماق | وقلبي ذاب من كثر احترا ق
فلا تارى طفاها دمع عيني | ولا دمعي يفيض من اختنا ق
ولي اسف على اسف وحزن | وهم فوق همّ واشتيا ق
على من تقضى في نعيم | بمصر والعلى والعز را ق
وشمس السعد في شرف المعالي | وبدر الضد في درج المحا ق
ولما ان اراد الله هذا | اتانا الروم من جهة العرا ق
وسلطان الجميع سليم شاه | عظيم الملتقى مر المذا ق
وكان الماجد الغوري منا | مليكا شبه بحر في اندفا ق
وقد قاد الجيوش لنحو حرب | وكان المرج وعدا للتلا ق
وكان الحرب يوم الحد لكن | تولى جيشنا والحرب با ق
وسلطان لنا اضحى قتيلا | طريحا والدما في الانهرا ق
وكان الخائن الكلب الغزالي | وخيربك المبوطن في النفا ق
هما اصل الهزيمة عن حقيق | الى حلب بخيل في سبا ق
وصار الجيش من حلب لمصر | وزاد الكرب مع ضيق الخنا ق
وعند حماه خيربك المخامر | رجع لعدونا يبغي شقا ق
وفي الشام الغزالي كاد كيدا | وارداه عاقر كل انعوا ق
وساروا بعدها سيرا حثيثا | لغزة ثم مصر في لحا ق
ولما استجمعوا في مصر قالوا | نسلطن ايكم لعدو واق
ولسوا ايننا اهل لهذا | براي الفيل علان المواق
وسرنا الشريع عظم جيش | عشرة الالاف فرسان اسبا ق
وقدمنا على الكل الغزالي | ولم يعلم بسوء الاختلا ق
فاختار الهزيمة وهو سال | سلاح الحرب خوفا من دها ق
وجاء تنا رجال الروم مصرا | وقد حازوا البلاد مع الافا ق

خرجنا بالجموع لنلتقيهم — وكان الشر يوم الحرب راق
وفي حط المدافع قام قومي — وزادوا في الخصام وفي الخناق
وقد جاءت علينا الروم زحفا — كنجم الحس في الآفاق فاق
وزاد الرمي بالبارود حتى — حسبت الرعد محلول الانطلاق
واطبق كل ناحية ودخ — واشغل بالمشقة والدقاق
وقلت لكرنبا تري الاعادي — علينا كالسحاب على الشراق
وقلت الى الفتى علان خفنا — فليس لنا من الاحيا بواق
فقال اليوم نصليها بطعن — تموت الناس والتذكار باق
وقمنا بعد ذلك قد حملنا — كأسد لا تخاف ولا تواق
قتلنا من ملوكهم ثلاثه — واسقيناهم كاس الدهاق
ولما قدروا ذا الفعل منا — اتونا كالجبال بانطباق
فاسقيناهم كاس المنايا — فخروا للثرى مذ كنت ساق
وبدت الفوارس في مجالي — بطعن في الصدور وفي الاماق
وعدنا عودة للأسد لما — اتوا بالصيد من قلب الوطاق
وقد صبنا الغزالي قد تولى — واختار الهزيمة بالنفاق
وفي علان جاءت ضربة زات — وكان بر المنية والفراق
فوا اسفا عليه وقد تولى — وودعني وداع الافتراق
تظل العين باكية عليه — بدمع لا يمل كما السواق
وجابر كبتيه كمثل هذا — وصار الفخذ منه كانطاق
كذلك جانبلاط غدا طريحا — ابو تيس في الشجعان راق
واما قانصوه امير قطيا — فلم يوقد بيوم الحرب واق
وكم قد رمت قتل سليم شاه — فلم يبارزني وحر الحرب باق
وكم قد قلت اين سليم شاه — يبارزني وحر الحرب باق
واقسم لو اراه غدا قتيلا — بسيفي لو رقا سبعا طباق
ولما ان رأيت الحرب دارت — علي وقد نأى عني رفاق

فوليت الجواد لنحو مصر وحسبت الغنا والله باق
وعند طرا اتانا الجيش جمعا وسرنا الشرق يا بئس الشراق
وعدينا المصر لاجل حرب كبسنا الروم والديجور باق
قتلنا منهم جمعا عزيزا بضربات المهندة الرقاق
ثلاثين بان القتل فيهم وفينا والعساكر في محاق
وقومي قد ارادوا يغدروني ويرموني اسيرا في وثاق
وشاربك احتمى عني بسيف وكان بنفسه لي خير واق
جزاه الله عني كل خير وكان له رحيق المسك ساق
ورحنا قلقشنده ثم عدنا وصرت اجد من عظم اشتياق
وجدنا قايتا امسى قتيلا وفوق الالف معه في ذهاق
فقلت لشاربك اذهب سليما واحذر من طبيعات الحماق
فان عداءنا جمع عظيم كمثل البحر زايد في تراق
فقال اليوم نصليها بطعن كمثل السم لا ينفعه راق
وقاتلنا الجموع وقاتلونا ونحن على المضرة والعناق
وبعد الظهر جاءتنا جيوش عداد الرمل جمعا في انطباق
وزلزلت البلاد بهم الى ان حسبت الحشر قام مع التلاق
فقلت لرفقتي خلوا وقلوا ووالينا جميعا بافتراق
دخلت البيت نخبيه لقاني جموع من نسانا في زعاق
وقاموا في ضجيج مع نحيب وجاءت خوند بثوب طاق
وقالت لي تخلفنا على من وليس لنا ترعى في الحي واق
وتهرب من ذئاب وانت ليث طويل ناب والخلاب باق
وفيك السابقات لكل خير وفيك اللاحقات مع البواق
تخلصنا من الاروام يا ذا فانا في مضيق وانغلاق
فقلت لهم ورب البيت اني صبوح الضرب بالبيض الرقاق
احب الي من شرب الملاهي على كاس وابريق وساق

وشرب دما الفوارس كل يوم | مدامي واصطباحي واغتباق
وانى اذ هبت الى اعتذار | لقد قلت جموعى مع رفاق
وعنتر غاب عن عبلى سنينا | بقيد الاسر فى ارض العراق
ونام الزير دهرا عن كليب | وبعد سنين جاء للتلاق
وان النيل يعلو بعد نقص | ويرقى الاوج من بعد انمحاق
وان الليث يهرب من لهيب | ويرجع رجعة كالسم فاق
وانى بعد فى امضى ثم انى | كرجعة عنتر يوم السباق
فعادت وهى نادبة بقهر | تضج الضج من الم الفراق
وقالت يا طوماى ابنا المفدى | فراقك عندنا مر المذاق
فسافر فى امان الله انى | ودعتك للذى رفع الطباق
فرجعت الجواد ودمع عينى | كسيل سال من بحر الاماق
وسافرت الصعيد فجرت جيشا | كما قالوه راقا فوق راق
وجاءنى قدانى وبدا بحرب | فولى هاربا دون الزقاق
وسرت لنحو مصر فى جيوش | تقادم الحمولة والنياق
ورزمك قد لقانى فى طريق | فيا له ماجد طلق طلاق
وصبحنا جيوش الروم صبحا | على الجود المضمرة العتاق
وردنا القتل حتى كل سيفى | واشكل نيل مصر بانهراق
وقد رهنا نعد البحر لكن | غزالة قدانونا فى استباق
ورامو احربنا وبغوا علينا | وان البغى اشام الاختلاق
فعدنا عن قتال الروم قهرا | لعينا قيت سيد من يلاق
وعلقنا على الاهرام شعرا | كنظم الدر فى حسن النساق

قال الراوى

فاقتضى راى السلطان طومانباى ومن معه من الامراء ان يدخلوا الى دهشور وينادى فى البلاد ان الخراج بطال ثلاث سنين وان من اراد القتال ونصرة السلطان طومانباى فليسرع

الينا وله مالنا وعليه ما علينا فلما كان كذلك اجتمع لهم عالم عظيم من عرب وفلاحين وغيرهم ثم اقتضى رأيهم ان الامير شريك يكون باشا على عشرة الاف فارس راكب وماشي الى قتال السلطان سليم فى اى محل صادفه فيه. وان السلطان طومانباى يستمر فى دهشور حتى يأتيه الخبر من عند شريك هذا ما كان من امر هؤلاء واما ما كان من امر السلطان فانه ضاق صدره وندم على دخوله مصر وخشى ان يطول عليه المطال ويدخل عليه الشتاء وينقطع عنه خبر بلاده وخشى من امر النصارى ان يدبروا امراً فى غيبته على اخذ الممالك الاسلامية فاشتغل فكره ودخل عليه الوسواس فنوى ان يبطش بخيربك فانه هو الذى حسن له التوجه فى اخذ مصر وخصوصاً وعده السلطان ان يجعله باشا على مصر الى ان يموت فبينما هو فى هذا التفكر وقد دخل عليه الوزراء واخبروه ان بلاد الاطفيحية خرجت عن طاعة السلطان سليم وقامت العربان كلها على ساق لنصرة السلطان طومانباى فازداد غماً على غمه فاقتضى الرأى ان يرسلوا بجريدة تمهد العربان وتأمرهم بطاعة السلطان سليم وانه ما قصده الا عمارة البلاد وانه لا يحصل منه اذية لاحد من العرب ولا من الفلاحين وانه كل من عاند او خالف ليس له جواب الا السيف فقال السلطان من يكون سردار على التجريدة فقالوا كل من اختاره السلطان فقال يكون قانبردى الغزالى فانه يعرف بأمر هذه البلاد وبقتال العربان فلما حضر امره السلطان بذلك فاجاب بالسمع والطاعة وقال امر العربان هذا اسهل ما يكون ولا يهتم مولانا السلطان بشئ من ذلك ابداً قال الشيخ احمد بن زنبل الرمال ان السبب فى وصول الغزالى الى طاعة السلطان سليم هو انه لما عاكس السلطان طومانباى فى امر المدافع وغطوهم بالرمل عناداً وتكبراً منه ومن بعض الامراء فلما حصل ما حصل من الهزيمة فى وقعة

الريدانية وانهزم من جملة من انهزم وحسداً منه للسلطان
طومانباى وكان قصده ان يتسلطن هو فلما اقتضى رأى الامير
علان والامير شريك الاعور والامير كرتباى الوالى والامير
قانصوه العادلى والامير ابرك راس الجلبان وبقية الامراء
والاعيان ان يسلطنوا طومانباى لما يعلمون من فروسيته
وشجاعته وديانته وانسانيته وتواضعه وزهده فى
الدنيا وعدم التكبر والتجبر وليس يستحق السلطنة الا هو فلما
كان كذلك غلب الحسد على قانبردى الغزالى والبغض لابناء جنسه
حيث انهم لم يؤهلوه للسلطنة وقدموا عليه طومانباى وكان
احق بها واهلها نسبة الى غيره والغزالى اخذ يعاكسهم فى كل امر
دبروه ويخطئ رأيهم فيما يفعلونه فعلم السلطان طومانباى
والامير علان انه ملاحٍ عليهم فاراد الامير علان ان يبطش
بقانبردى الغزالى فقال له السلطان طومانباى لا تفعل فقال
لما تنظر الى معاكسته لنا وعناده قال اخشى انك ان قتلته
ربما تقع الفتنة فى عسكرنا وينخرم نظامنا ولكن اصبر الى ثانى مرة
وما يكون الا ما يريده الله تعالى ولا يغلب الله غالب والله سبحانه
وتعالى يعلم اننا ليس لنا رغبة فى قتل احد وانما هؤلاء القوم بغوا
علينا ويريدون ان يأخذوا بلادنا واموالنا واولادنا ويسكوا
حريمنا فوجب علينا ان ندفع عن انفسنا وعن اموالنا واهلنا
واولادنا ادع كل من قدر على شئ ان يفعله والله يفعل ما يشاء
فقال الامير علان والامير شريك والله ما دام هذا الخبيث
الولد الزنا بيننا لا ينقام لنا نظام ابدا وما دام خيربك مع عدونا
لا يرد الخصم عنا ابدا فقال السلطان طومانباى والله ثم والله
ليس لى رغبة فى سلطنتى وانما انا واحد منكم ولولا انكم اخترتمونى
والزمتمونى بذلك ما طاوعتكم فى شئ من ذلك ولكن لله التدبير

فلما انهزم قانبردى الغزالى تبعه اثنا عشر اميرا فصار فى منهم
الامير سودون الدواداري ضرب زان اخذ فخذه فسار معهم
الى قليوب وهو بلا فخذ فصفى دمه فمات هناك ودفن بها
فجاء بعد ذلك على باى واخرجه من قبره وحمله الى مصر ودفنه
فى تربته وتم الامير قانبردى الغزالى ومعه احد عشر اميرا وكان
من جملتهم برزمك الناشف الى ان وصلوا الى الامير احمد بن
بقر فخرج الى لقائهم ورحب بهم واقام بخدمتهم وما زالوا
عنده والاخبار ترد عليهم وشاع ذكر طومانباى وما ظهر
منه من الفروسية وما فعله فى عسكر السلطان سليم وما
قتل منهم وكذلك الامير شربك الاعور والامير قانصوه العادلى
وغيره من الاعيان الذين تبعوا السلطان طومانباى فحصل
عندهم الغيرة من ذلك فان الجراكسة كانوا قوما نفوسهم
شامخة واعطاهم الله تعالى الشجاعة والفروسية وكانت هى
فخرتهم فكان كل منهم تحدثه نفسه انه ما يكون سلطانا الا هو
فلهذا اخذوا عن دابرهم فان اخذ الملك ليس كان عندهم الا بالشجاعة
والملك ليس بقوة وانما هو امر الهى يعطيه الله لمن يشاء من عباده
ولما ترادفت الاخبار بما فعله طومانباى صاروا يتعجبون من ذلك
فان طومانباى ما كان مشهورا عندهم الا بالدين والصلاح وكان
الذى ينظره بهذه السكينة والوقار لا يشك فى صلاحه وكان
محبوب الصورة عند كل احد فلما صارت منه هذه الشجاعة
والفروسية صاروا يتعجبون فقال لهم الامير برزمك الناشف
انا سمعت قول القائل الشجاعة صبر ساعة فقالوا له صدقت
يا امير لكن من يصبر على ملاقاة هذه النيران وضرب الزانات
والبندقيات ولو كانوا مثلنا يقاتلون على ظهور الخيل كان الواحد
منا يقاتل منهم مائة ومائتين لانهم ليس عندهم معرفة فى ركوب الخيل

ولا الجولان في الميدان فقال الامير رزمك الحي ماله قاتل وقال
في نفسه ما ثمرة بقائنا في هذا المحل وسلطاننا يقاتل بنفسه
والله ليس هذا من المروءة ونوى على الذهاب الى السلطان طومانباي
وبات ما اصبح ففتش عليه الغزالي فلم يجده فعلم انه سار الى السلطان
طومانباي فخشي انه اذا قام يوما الخرجعت بقية الامراء الى
طومانباي ويخبره بمحل الغزالي الذي هو فيه فقال في نفسه وتكلم
مع الامراء الذين معه وقال لهم يا اغوات اعلموا ان دولتنا قد
ولت وما بقيت هذه البلاد الا لهذا الملك والاولى والاحسن
ان نذهب اليه ونأخذ له امانا فاذا صرنا في امانه امنا على انفسنا
واموالنا وحريمنا وايضا ليس هو مقيما في هذا الاقليم فانه حيث
تمكن من البلاد بأخذها وقتل طومانباي اقام خيربك نائبا عنه
وذهب الى بلاده فاذا ذهب عنا بقيت البلاد في ايدينا نتصرف
فيها كيف نشاء قالوا له ومن اين لنا انه يعطينا الامان قال لهم انا
اضمن لكم ذلك فان بيني وبين خيربك اتفاقا باطنا لا يعلم به احد
الا انا وهو فعند ذلك اطاعوه وذهبوا معه الى ان وصلوا الى
كيمان الريش وارسل اعلم خيربك بقدومه ففرح خيربك بذلك
فرحا شديدا وذهب الى حضرة السلطان سليم واخبره بذلك
ففرح السلطان ايضا فرحا عظيما وارسل له خيربك والوزراء واعيان
دولته فتلقوه ودخل من باب القنطرة في موكب عظيم وخلع عليه
خلعة عظيمة من اعظم خلع الملوك وقابل السلطان سليما ورحب
به وامنه وامن جميع الامراء الذين كانوا معه وصار معززا مكرما
عند السلطان سليم وعند عسكره ونرجع الى سياق الحديث قال
فلما اخبروا السلطان سليما ان العربان قامت على ساق وعصوا
وخرجوا عن طاعة السلطان واقتضى رأي السلطان في ارسال
تجريدة فارسل الغزالي باشا على العسكر وكان معه خمسمائة فارس

من الجراكسة وخمسمائة رامي بندق من الينكجرية الى بولاق طفيحية فلما وصل الى اطفيح ورأى البلاد كلها قائمة على ساق والعربان مجمعة وراوه قصدوه وبادروه بالسب والشتم ثم وقع بينهم الحرب فكانت الكسرة على العرب فانه بادر برمي البندق فلم يثبتوا لذلك فولوا هاربين فقفاهم ومزقهم كل ممزق وشتتهم وامر بنهب نجوعهم وسعيهم وحريمهم واولادهم وارسل جميع ذلك الى السلطان سليم فامر ببيعهم في الرميلة فبيعت النساء والاولاد الاحرار كما يباع الرقيق ولكن بابخس قيمة فصارت الناس كل من كان في قلبه رحمة يشتري منهم الذي يشتريه ويعتقونهم في الحال ووقع على الغزالي من دعاء العامة ما لا يحصى عددا حتى دعت عليه اليهود والنصارى ولما سمعت العربان بذلك عصت جميعا * وكذلك العشير والحوف وكان سيدي يحيى بن الامير ازبك صاحب بركة الازبكية لما كانت وقعة الريدانية وانهزمت الجراكسة ثم على ظهر فرسه الى بلاد بني حرام وكان بينه وبينهم مصاهرة وتم مقيما عندهم والاخبار تنتقل اليه وترد عليه وقلبه مع طومانباي ولكن لا وصول له اليه فلما كان كذلك وعصت جميع العربان والبلاد رأى له طريقا الى الخروج فصار هو وبني حرام يخرجون ويدورون في البلاد والطرقات حتى وصلوا الى باب النصر وباب الشعرية وكل من وجدوه روميا قتلوه فقتل من الاروام خلقا كثيرا خصوصا من الاروام الذين يسمون عجم اوغلان فانهم كانوا يدورون ينهبون كلما يجدونه من ماكل وغيره فكانت الزعر والفلاوية وحسن القتل في ذلك الزمن وكان سيدي يحيى بن الامير ازبك شجاعا عظيما وكان من الفرسان المخبورة حتى اجمعت الناس على انه كان فريد عصره ووحيد دهره في كل فن من فنون الحرب وكان فيه محاسن تفوق عن الوصف

فلما سمع بان السلطان طومانباى يقاتل السلطان سليما عند المقياس
ورحل عنها الى دهشور وانه جعل الامير شربك الدوادار الكبير
مقام نفسه فى جميع اموره واشترط على نفسه ان ايده الله تعالى
بنصره جعله ولى السلطنة من بعده لاجل ما نظر من شجاعته
وقوته فى الحرب فعند ذلك قام سيدى يحيى بن الامير زيك وعزم
على التوجه الى السلطان طومانباى وعدى من بر الشرق الى بر الغرب
وتم سائرا وكل من تلقاه من العربان يترحب به ويفرح برؤيته وبلغه
اليه فانه كان مشهورا ومخبورا عندهم بالفروسية فلا زال
سائرا حتى وصل الى دهشور واجتمع بالسلطان طومانباى ففرح
به السلطان وساله عن حاله فاخبره بما فعله هو وبنو حرام من
قتل الاروام فشكره السلطان على ذلك وامره ان يكون مع الامير
شربك من اصحاب المراتب قال الراوى هذا ما كان من امر هؤلاء
واما ما كان من امر السلطان سليم فانه لما نظر الى هذه الامور
المفزعة والاحوال المطربة خاف على نفسه وضاق صدره من
اجل ذلك وتحير فى امره فقال لارباب دولته ما ذا تقولون فى
هذه الطائفة القليلة كلما اقول ان امورهم هانت فما اراها الا
تزيد فى كل يوم وقد حصل لنا منهم غاية الضرر فقال يونس باشا
والله كان رجوعنا من الشام هو الصواب الا ان خيربك لما انه
وعدنا بان يكون ملك مصر ما دام حيا صار يدبر فى تحصيل
مراده ولا قدرة له على ذلك فهو يحسن لولانا السلطان العبارة
ويسهل لك الامور ويظهر لك انما قصده الا ان تكون البلاد
بلادك والحال انه فى باطن الامر انما يستعين بك على بلوغ مراده
وهو هلاك ابناء جنسه واستقلاله هو بالبلاد والملك وترجع
انت ونحن معك ان سلمنا ويستقل هو بالبلاد لنفسه وقد
طمعت اماله بانك لا تاخذ منه مالا ابدا فهو مجتهد فى ذلك غاية

الاجتهاد فحصل عند السلطان سليم تغير عظيم على خيربك حتى
ايقنوا اجمعين بانه لا يبقى عليه ابدا وكان يونس باشا الذى
هو الوزير الاعظم يكره خيربك فى الباطن لما راى منه من
قلة الخير فى حق ابناء جنسه وكان ليونس باشا من الاخلاق
الحميدة والاوصاف الجميلة ما يفوق الوصف وكان يعرف
ان خيربك ما قصده الا بلوغ مراده ولكنه دخل فى عقل السلطان
سليم وصار يصغى لقوله وصار السلطان متحيرا لانه ان قتل خيربك
وهو مسجون فى مصر قامت عليه جميع البلاد من الشرق والغرب
فقال السلطان سليم لارباب دولته انا نحن قد اخذنا ارض
هؤلاء القوم وسبينا حريمهم وقتلنا اكابرهم فماذا نريد بعد
هذا وكفى ما قد جرى وصار الاحسن فيما ارى ان نجعل بيننا وبينهم
صلحا ونترك لهم بلادهم فاشاروا عليه بارسال خوشقدم فقال لهم حبا وكرامة
ولكن اذا لم يوافقوا على ذلك والا كنت انا اول من يقاتلهم ثم خرج من عند
السلطان سليم فطلبه يونس باشا واوصاه بانه لا يغلظ عليهم
فى الكلام فان الكلام اللين تقبله النفوس فلما وصل خوشقدم
الى دهشور راى جيشا عظيما وخيلا كثيرة فلما وصل اليه فاذا
بالامير شربك ومعه هذه العساكر وهو قاصد قتال السلطان
سليم فلما اجتمع به ووقعت العين فى العين قال خوشقدم يا معاشر
الامراء والسادات انى اريد الامير شربك واتكلم انا وهو فيما
يكون فيه الصلاح لنا ولكم فتقدم الامير شربك وعن يمينه الامير
ابرك راس الجلبان وعن يساره قانصوه العادلى والامير قلج
وحركوا خيولهم وقد خرجوا عن قومهم حتى التقوا بالامير خوشقدم
وصار بينهم قدر رمحين فكان البادى بالسلام الامير شربك
فرد عليه خوشقدم السلام فقال الامير شربك ما معك ايها
الامير وفاى شئ جئت فقال جئت فى الصلح بينكم وبين هذا الملك

الذى هو سليم شاه الذى هو اعظم ملوك الارض ولست ارى لكم
ان تعادوه والراى عندى ان تدخلوا تحت طاعته احسن من
ان تصيروا فى قبضته وتذوقوا بين يديه العذاب ويقطع منكم
الرقاب لانه ارحم عليكم وانتم ارحم على ارواحكم وارقابكم
واولادكم ونسائكم وعيالكم فكفوا شره عنكم فقال الامير
شربك اما انت فامرك امر عجيب فقال لماذا قال لانك كنت تقول
قبل هذا الملك الذى يقول انه اعظم ملوك الارض ان جاء من الروم
الى ارضنا اول من يقاتله انا واكون فداء لابناء جنسى جميعا فلما
ذهبنا الى شرق اطفيح ورجعنا الى حرب عدونا وضربنا الراى ان
نكبس عليهم ليلا فهربت انت منا ورجعت الى عدونا الذى كنت
تقول انك اول من يقاتله واخبرته بما دبرناه واطلعته على ما اضمرناه
فلا ادرى افعلت ذلك من جبن فى قلبك او خلل فى عقلك واعجب
من هذا انك جئت اليوم تزعم انك تريد الصلح فلا ندرى اخصم
انت ام حكم فقال له خوشقدم صحيح انى فعلت ذلك وما فعلته جبنا
من الحرب ولا خوفا من الطعن والضرب وانما فعلت ذلك لما
انى رأيتك صرت دوادار كبيرا وتعاليت علينا هذا العلو لانه
كرهنا ان نكون تحت امرك وان ننقاد لقولك وفعلك فقال له
الامير شربك من حسن عقله وحلاوة لسانه وطول روحه
وادبه فى جوابه والله يا امير خوشقدم لو اخذت انت هذه
الوظيفة التى حسدتنى عليها لكنت اول من يخدمك فيها ويقوم
بحوايجك فقال له خوشقدم بعد ان خجل منه واستحى والله انا
كنا حسدناك عليها ولكن لما سمعنا عنك ما لم نصدق من
الفروسية والشجاعة ورأينا ذلك عيانا قلنا والله انه احق
بها واهلها ولولا ان السلطان طومانباى يعلم منه انه يستحق
ذلك ما اعطاه له ولكن هذا قلع من ابن حتى يكون فى مرتبة كرتباى

الوالى فلما سمع الامير قلج منه هذا الكلام ما ساعه عقله ان يسكت
عن الجواب فقال له وانت لو علم الله ان فيك خيرا اعطاك اعلى
منا ولكن الله تعالى علم انك رجل خائن خارج عن حدك مارق
عن ابناء جنسك فلما سمع خوشقدم هذا الكلام اخرقه جدا
وكان عنده طيشان عقل وخرجت منه الحدة فثلث قنطاريته
وطعن الامير قلج طعنة بقوة عزمه يريد بها هلاكه فاخلى عنها
بمعرفته فراحت في البطال ومن شدة الطعنة كاد ان يسقط
خوشقدم عن جواده فلما عاين ذلك الامير شربك خرج منه الحدة
وكان في يده طبر جناح مكتوب على ظهره بالذهب هذا دليل لنهب
الارواح فضرب به خوشقدم على قنطاريته فابراها كما تبرى
القلم فلما سقطت قنطاريته من يده جذب سيفه وقصد الامير
شربك فضربه ضربة ثانية بالطبر على خودته فقطعها وجرح راسه
جرحا عظيما فلما راى الدم على وجهه ولى هاربا فلما راوه اتباعه
ولى هاربا والدم يقطر من لحيته ولوا وتبعوه منهزمين فتبعهم
شربك قدر ميل ورجع عنهم فما سلم منهم الا القليل فلما وصلوا
الى اوطاق السلطان سليم وشاع الخبر بان خوشقدم منهزما
وولى مجروحا ووصل الخبر الى السلطان سليم اغتاظ غيظا عظيما
فامر باحضار خيربك فقال له انى اريد الرجوع الى دار سلطنتى
لان الاعادى فى حوالى مملكتى وقد قرب الشتاء واشتد الغلاء
واترك هذا الخراب لاهله فلما سمع خيربك ذلك عسر عليه هذا
الامر وقال يا مولانا السلطان ان فعلت ذلك سقطت من اعين
الملوك ويقولون هرب من الجراكسة ولكن الصبر عاقبته الفرج
ومن تانى ينل ما يتمنى فعند ذلك امر باحضار من كان مع
خوشقدم من الاروام وقال لا تاتونى بجركسى ابدا ولا تروني
احدا منهم وكل من يجيب اسارى يجيبهم قدام الخيمة ويقوم

المشاعلية يقطعون رؤسهم وكل من يجيب رأسا يوديه الى
الوزير الاعظم فلما وقف كبيرهم بين يدى السلطان قال له
اما اجتمعت بطومانباى فقال لا والله ما اجتمعنا به وانما وجدنا
شريك وهو سائر الى جهتنا وقاصدنا فقال السلطان فى كم
فارس يكون قال معه الفا فارس من مدرع ولابس وفى الحديد
غاطس وهو امامهم يقول فى نفسه انه يقدر ان يفتح بهم الارض
شرقا وغربا فقال له السلطان انت نظرت شريك الاعور قال لى
نعم وقربت منه حتى نظرت فى وجهه فقال له السلطان صف
صفته فانهم وصفوه عندى مرارا كثيرة فقال ليس هو طويلا
ولا قصيرا وانما هو شرطة الناس وليس هو سمينا ولا رقيقا الا
ان قوائمه كقوائم البعير اعرض ما فيه صدره واكتافه وذراعاه
حنطى اللون عزنى الوجه وليس هو اعور كما يقولون وكما يسموه بالاعور
ولا به حول وانما اذا مال بعينه الى جانب يكون احد بياضها ازيد
من سوادها فلما سمع منه السلطان هذا الكلام قال له صدقت
ثم قال له وهل طال الكلام بينهما حتى تمكنت انت من النظر اليه
فقال نعم حتى انى سألت من جماعة خوشقدم عنه فقالوا اننا
رأيناه باعيننا وهو يمسك الفحل الجاموس من قرنه ويجذبه
فيقلعه من مكانه ويلوى قرونه بيديه فيقلبه على جنبه والناس
ينظرون اليه فقال له صدقت انى سمعت عنه ذلك ولكن اذا
نزل القضاء عمى البصر فلا تفيد الشجاعة فسوف ترى انى سأقبض
عليه واقطع رأسه وانت تنظر اليه فان دولتهم قد انعكس
طالعها ثم ان السلطان التى كليته الى الحرب وامر ان تمسك جميع
المراكب ويجعلوها صفا واحدا من بر مصر الى بر الجيزة وان
تربط فى بعضها باحكام واتقان وامر ان تعدى العسكر على
المراكب ففعلوا كما امر واخذ معه نحو اربعين الف خيال ومثلهم

مشاة غير اتباعهم ولكنهم نقاوة النقاوة من شجعان عسكره
وطلب قتال الامير طومانباى وترك فى مصر الوزير يونس باشا
وبقية العساكر واوصاهم بحفظ البلد واخذ معه خيربك
نائب حلب واوصى الوزير الذى هو يونس باشا انه اذا جاد
الغزالى برسله اليه قام الوزير من وقته وساعته بكتابة مرسوم
الى جانبردى الغزالى يامره بان يتكلم الشرق الى الصعيد وان السلطان
سليما يريد قتال السلطان طومانباى وهو مجد له فى الطلب وان
اذا وصلت اليك تلك المكاتبة تكون على اهبة حتى تجتمع بالسلطان
سليم وتكون انت وهو على طومانباى حيثما يكون وحيث ذهب

ذكر تعدية السلطان سليم الى بر الجيزة

قال فلما عدى السلطان سليم الى بر الجيزة ومعه سيدى محمد
ابن المرحوم السلطان الغورى وكان سيدى محمد قد قابل السلطان
سليما فى اول دخوله مصر على يد اخى جلبى وقاضى العسكر محمد
افندى بحكم وعهد وكتب له السلطان سليم وحلف له ايضا
انه لا يضره بوجه من الوجوه ابدا ولما قابله اكرمه السلطان
غاية الاكرام وخلع عليه خلعة تليق بالملوك وزاد فى اكرامه حتى
اطمأن اليه وصار ياخذه معه فى كل محل ذهب اليه ولما عدى
السلطان سليم الى بر الجيزة كما تقدم وصار يسير بهم على الراحة
لاجل ما معهم من المدافع والضربزانات والاحجار والاثقال
قال الراوى هذا ما كان من امر السلطان سليم وسيره بالعساكر
واما ما كان من امر شربك فانه سار بمن معه حتى وصل الى
بر الجيزة وعن يمينه الامير قانصوه العادلى وسيدى يحيى بن
الامير ازبك والامير دولتباى كاشف الجيزة والامير يازدبك
وعن يساره الامير ابرك راس الجلبان والامير تمر الزردكاش
نائب الاسكندرية والامير دولتباى الكبير كاشف الصعيد *

والامير قلج صديق الامير شريك وهم سائرون فقال الامير شريك
والله يا اخواني اظن والله اعلم ان في هذا اليوم تقع لنا
مضايقه من قبل عدونا فان قلبي قد جربته ما حدثني بشيء الا
وقد صاد في الصحة ولكن قال العارفون من ثبت نبت
والشجاعة صبر ساعة فبينما هم في هذا الكلام الا وقد ظهر على
بعد جيش عظيم والسناجق والاعلام فقال لهم الامير شريك
رايتم ما قلت لكم ولكن تأهبوا وقفوا مكانكم واما السلطان
سليم فانه لما عاينهم عرفهم فانه قد جاءه بدوى من عرب الفيوم
واخبره بان شريك الاعور قادم عليك ومعه الفان من خيار
عسكر طومان باى كل واحد في نفسه يقول انه يلقاك بمفرده
فعند ذلك امر السلطان سليم الرماة ان يبدؤا بالرمى ولما تقارب
الجمعان حمل الامير شريك عليهم حملة واحدة ودكس عليهم فلما
عاينوا ذلك رموا عليهم طلقا من البندق والمدافع والمكحلات
والسبقيات حتى ادوت الدنيا وتزلزلت تلك الصحارى ولا بقى
احد ينظر احدا فهلك من هلك وهرب من هرب وثبت من ثبته
الله ولكن الامراء الذين تقدم ذكرهم لم يهلك منهم احد ولم يهرب
منهم احد بل توكلوا على مولاهم واسلموا امرهم اليه وحطوا ايديهم
في الروم وقاتلوا قتال من ايس من الحياة وقاتل الامير شريك قتال
الجبابرة فما مضى من النهار قدر نصفه الا وقد تقهقرت الروم الى
ورائهم وراوا من الامير شريك ما لا يرونه من احد غيره فعند
ذلك امر السلطان سليم عسكره ان يتفرقوا عليه من كل جانب
فصار كل من قرب منه هلك لوقته فلم يقدر واحد منهم ان يضربه
ضربة لا بسيف ولا بعود وصار يصرخ فيهم ويقول خلوا عن
الحرب يا علوج الروم وارجعوا الى شوربتكم وبوظتكم ثم
كلمهم بكلام فاحش ذكره الحاج فارس وهو غلامه الذى كان

وراء ظهره بالجنيب قال وقد استقل الروم حتى عجزوا عنه بجملتهم وايسوا منه ولم يبق احد منهم بقربه فان كل من قاربه هلك وهو ينادي ويقول اين انتم ياسليم يا من يريد ان يكون سيد الملوك والسلاطين ابرز الى الميدان ان كنت سلطان آه يا جبان يا ابن الجبان يا من يقاتل المسلمين بالنيران ثم التفت عن يساره فوجد كردوسا من الروم نحو الالفين واكثر قد احاطوا بالامير دولتباي كاشف الجيزة فمال عليهم ميلة منكرة فما شعر الروم الا وهو حاطم عليهم حطمة الاسد الغضبان فانه لما راح السلطان الغوري بهذه الامراء والعساكر الى مرج دابق كانت عسكره من جلجولية الى الجون ولا كان احد يقول ان هذا العسكر ينكسر ابدا ولو اجتمع عليه اهل الدنيا فانه كان كل واحد من هؤلاء الامراء يقول في نفسه انه مقوم بجيش وحده ولكن لما اختلفت كلمتهم وقامت النفوس بعضها من بعض ولاحوا على بعضهم فكسروا بعضهم جبرا وكسروا ملكهم قهرا فلما التحم الحرب مع السلطان سليم لم يصبروا غير ساعة وهي من طلوع الشمس الى وقت الغداة وكانت الكسرة عليهم قال الراوي وما زال الامير شربك كلما سمع الجاوشية يصيحون على الطوائف ويحرضونهم على الحرب فيعيد وثبها فيحمل بنفسه عليهم حتفا ويقول ان هؤلاء احق بالقتل من غيرهم فانهم يامرون الناس بقتل بعضهم ويحرضونهم على ذلك وهم لا يقاتلون شيئا بل يكبرون العمائم ويجهرون بالاصوات ثم عمد الى ناحية من الجاوشية وقاتل قتالا لا يدخل تحت الحصر حتى صارت الرجال مطروحة رزقا فوق رزاق واما باقي الامراء من الجراكسة فان كل امير منهم كسر من بين يديه من العساكر ولكن ما ولت الروم كل الهرب وانما انقهقرت مواكبهم وتخت كتائبهم وعجزوا العجز العظيم وذاقوا البلاء العميم لانهم في طول عمرهم ما قاسوا قتالا

مثل هذا اليوم وكان السلطان سليم يتأوه ويتحسر ويتقلق
ويتضجر ويقول ماكنت اظن ان اقاسى من احد مثل ما قاسيت فى
يومى هذا ولا كنت اقول انى بهذه العشرة الاف فارس وراجل
التى هى خيار قومى وتبعها اكثر من عشرين الفا التى فى هذا الاعور
الذى هو فى اقل من خمسمائة فارس ما لقيت منه ويفنى اكثر عسكرى
فقال له خير بك والله يا مولانا السلطان كذلك انا اقول
ماكنت اظن ان شربك هذا بهذه الصفة ولا كنا نعتبره بين الفرسان
ولكن ابرز انت بنفسك للعسكر وازجرهم وامرهم بالحملة لعل ان
يكون بسعدك النصرة لك فعند ذلك خرج السلطان سليم على
عسكره وصاح فى وجوه اكابرهم للحرب ماهذه الفترات
اين تذهبون والى اى ارض تهربون ثم انه صار يوعدهم بالترقى
والعطاء الجزيل ويقول لهم انظروا لهم فانه ما بقى منهم الا نحو
الخمسمائة فارس انزلوا عليهم بجمعكم وابطشوا عليهم بقوتكم ولا
تبقوا منهم على احد واقطعوهم الى ابد الابد واسرعوا فى الحركات
فلما تكلم السلطان سليم بهذه الكلمات المعجزات مع اكابر دولته
خرجوا من بين يديه وهم لا يدرون ما يصنعون وصاحوا على
الطوائف المجتمعة وحمل كل صف من ناحية وكانت الجراكسة قد
ايقنوا بالنصر والظفر وما دروا ان فى ذلك اليوم الموت الاحمر والبلاء
المنتظر ولكن اذا نزل القضاء عمى البصر وما بقى مع الامير شربك
الا نحو خمسمائة فارس من الالفين الذين كانوا معه واما البقية
فمنهم من قتل ومنهم من هرب ولكن لم يهرب منهم احد من ضرب
سيف ولا عود ولكن انما هربوا من النار ومن البندق والضربزانات
وكذلك الذين قتلوا لم يقتل منهم احد بالسيف الا القليل جدا
وانما قتلوا بالبندق والنار ولما كانوا هزموا الروم ووقفوا
حوله الامير شربك وهو بينهم كالاسد وكل منهم يدعو له ومنهم من يقبل يديه

ومنهم من يقبل رجليه لما رأوا منه من الشجاعة التى لا تسمع الا عن عنترة
ابن شداد فصار يسأل عن الامراء ويتفقدهم واحدا بعد واحد
فما وجد ولا احد منهم قتل ولا جرح ففرح بذلك وانما الذين قتلوا
والذين هربوا كلهم مماليك واتباع واما الرؤس الاعيان مثل
الامير قانصوه العادلى والامير يحيى بن ازبك والامير قانصوه
كرت والامير ابرك رأس الجلبان والامير دولتباى كاشف الجيزة
والامير دولتباى كاشف منفلوط وكان صديقه قلج يساره
ويتحدث معه حتى مر على الامراء المذكورين جميعا وهو يتفقدهم
هل جرح منهم احد فوجدهم كلهم طيبين فقال لهم الشجاعة صبر
ساعة انظروا الماصبرتم كيف ظفرتم وايدكم ربكم فثبتوا نفوسكم
حتى يتم الامر لكم ومن تعب منكم يقف فى مكانه ولا يولى دبره
فيكسر قلب اصحابه ويطمع الاعادى فينا وكلما كنتم حزمة واحدة
كنتم انتم الغالبين فقالوا والله يا امير ليس منا احد يهرب لا من
طعن ولا من ضرب فان هؤلاء القوم قد عرفناهم ليسوا ابا فرس منا
ولا اشجع منا حتى نهابهم وانما ضرورتنا من هذه النار وهذا
البندق والرصاص ومن هذه الضربزانات التى لو رموها على
الجبال لازالوها قال لهم لا اعتبار بشئ من هذا مطلقا والحى
ماله قاتل والانسان اذا فرغ اجله مات وهو على فراشه وقد
قال مولانا سبحانه وتعالى لكل اجل كتاب فلا يزيد العمر بالهرب
ولا بالثبات ينقص العمر يوما يوما طيبوا نفوسكم ولا تجبنوا
فان الله تعالى يكره الجبان واعلموا انكم ما تقاتلون الا عن حريمكم
واولادكم واموالكم وبلادكم فمن قتل منكم مات شهيدا ومن
عاش منكم عاش سعيدا واما هؤلاء فانهم باغون عليكم والباغى
له مصرع فبينما هم فى هذا الكلام وظنوا ان الروم قد بطلت
همتهم عن الحروب واذا بهم قد اقبلوا عليهم زحفا مثل قطع الغمام

فصاح عليهم الامير شريك الحملة اسرعوا باكرام غير لئام فكان
هو اول من حمل بعدما فرغ منه الكلام وتطح الجيش بصدره
كانه الليث الضرغام فرمت عسكر الروم اول طلق والثاني
والثالث بالبندق والضربزانات حتى صار البندق والاحجار نازله
كالمطر المدرار والجراكسة قد التحموا في الروم حتى صار بينهم
حملات ومحاربات ومصادمات ومهاجمات ومضايقات ما لا
عين رات ولا اذن سمعت وصار لهم رقع بالسيف والدبابيس
على الابدان كرقع مطارق الحداد على السندال او كوقع حوافر الخيل
على الحجر الصوان وجرى بينهم من الحرب ما لا تسعه الاذهان وكان
لهم يوم مشهود لم ير مثله في قديم الزمان وكان الامير شريك
قاتله في هذا اليوم قتال من استقل كالليث الغضنفر ان مال على
جماعة طحنها او على طائفة مزقها وفي يده سيف يقطع الاعمار
قطعا ويصدع الاكباد صدعا فلم يكن الا شئ قليل حتى انطفت
جمرة الروم وخمدت وكلت حركاتهم وجمدت وردهم الامير
شريك قهرا وزجرا بحد سيفه فتراجعت مواكب الروم بين
يديه الى الهروب وقالوا ان هذا البطل ما له من البشر مطيق ولا
يليق لاحد ان يقاتل هذا السبع الغضنفر فلله دره من بطل
الابطال وهازم الاقيال حتى صار بعض اكابر الروم يدعون له
كما يدعون لانفسهم مما راوا من شجاعته وفروسيته وعلموا انهم
لا يقاومونه لا في ركوب الخيل ولا في ضرب السيف ولا في رمي
السهام وانما عمدتهم على رمي البندق والضربزانات والات النار
فقال اكابرهم بعضهم لبعض اذا القتال مع هؤلاء الابطال في الفلاة
البطال فتقهقرت الروم الى ورائهم فلا زالوا واحتى وصلوا الى
النيل السعيد وقصدوا انفصالا من الحرب لهم في هذه الحالة
واذا بغبار قد ثار حتى سد الاقطار فوقفت الروم تنظر الخبر

ووقف الامير شربك ايضا هو ومن معه من الجراكسة ينظرون
وقد بقوا فئة قليلة ولكن كل واحد منهم مقوم بالوف ولولا
النار التى مع الروم لكانوا افنوهم عن اخرهم فلما قرب الغبار ظهر
من تحته خيل تركض الارض ركضا فقال لهم الامير شربك لا يخلو
هذا الجيش القادم من ان يكون السلطان طومانباى والا فهم
عرب غزالة قد جاؤا الى نصرة عدونا قال فما تم الامير شربك
كلامه حتى قربت الخيل اليهم وتحققوهم واذا هم عرب غزاله يقدمهم
سلام بن خبير واخوه حماد وهم قاصدون الى عسكر الجراكسة
فلما نظروا الى الامير شربك بادروه بالسب والشتم فلما عاين
ذلك منهم عرف ان الامر صعب فاقتضى رأيه ان يظهر لهم الهزيمة
حتى يتبعوه فاذا اتبعوه وبعدوا عن الروم يرد عليهم وربما ان الروم
يرمون عليهم طلقا فيكون فيهم هلاكهم وكان الامر كذلك
فانه لما اظهر لهم الامير شربك الهزيمة طمعوا فيه وتبعوه فلما
بعدوا عن الروم رجع عليهم الامير شربك رجعة الاسد وقاتلهم
قتال من ايس من الحياة فما ثبتوا بين يديه ولا درجة واحدة
وقد ولوا منهزمين فانه ما بقى بقربه احد الا قتله فما ساعهم
الا الهروب واما السلطان سليم فانه لما رأى العرب انهزمت على
الفور امر الرماة ان ترمى فقالت له الاعيان كيف نرمى على العرب
وقد جاؤا النصرتنا قال ارموا ودعوا كل من فرغ عمره يموت فرموا
عليهم طلقا فاصاب غالبهم فلما رات العرب ما حل بهم من الروم
اغتاظت قلوبهم وقال بعضهم لبعض انظروا الى هؤلاء العلوج
نحن نقاتل عنهم وهم يرمون علينا بالنار ولا يرحمونا ونادوا
لبعضهم من يرد السلامة يتبع الامير سلاما واخاه حماد فخرج سلام
وتبعته العربان وما سلم منهم الا طويل العمر فما مضى غير ساعة
حتى انعزلت عرب غزالة الى بعد نحو ميل ووقفوا ينظرون ماذا

يكون الامر بين الفريقين فلما عاين الامير شرباك ذلك حسب
الحساب انه متى رجع الى قتال الروم تتغفاه العرب وتضايقه
وتعوقه عن مراده فامر الامير قانصوه كرت ان يكون فى مائة
فارس تحت السنجق بين معه فاينما وجد العرب حملوا يلقاهم
بالمائة فارس والعرب الوف وقد قتل منهم نحو الف او اكثر ثم
حمل الامير شرباك والى جانبه الامير قانصوه العادلى والامير
ابرك والامير قلج والامير تمر والامير دربك والامير ابريزيد
والامير دولتباى كاشف الجيزة والامير دولتباى كاشف الصعيد
وسيدى يحيى بن الامير ازبك صاحب بركة الازبكية فهم صف
واحد كل واحد منهم مقوم نفسه بجيش وحده فلله درهم من
فرسان افراد واتباعهم نحو الثلاثمائة تحطم على الوف مؤلفة
ورماة بالبندق وبالنار على سائر الات الحرب فلما رات الروم
الامير شرباك قد رجع عليهم يريد الحرب صاروا يتعجبون منه غاية
العجب وقالوا لا شك ان هذا الرجل مجنون او معه احد من الجن
يساعده واما العاقل لا يلقى نفسه فى هذا الهلاك فامرهم
السلطان سليم بالرمى عليه فرموا طلقا حتى صار البندق عليه
كالمطر فلم يرجع عنهم وصار فى حملته حتى حطم عليهم وحط يده
فيهم فصارت تنظر الارؤس طائرة وفرسانا تتساقط وعملوا فى
بعضهم كما تعمل النار فى الحطب وكان النهار قد ولى وغربت الشمس
والح لها عليها السلطان سليم فى الحرب وامر اجناده ان يضايقوهم
وكان يرجوا اخذهم فى ذلك الوقت لان غالب عسكر الامير شرباك
منهم من قتل ومنهم من هرب وما بقى معه الا الامراء الرؤس
القرانصة وبعض مماليكه فطمعت فيهم الروم غاية الطمع وبذلوا
جهدهم فى الحرب فلله در هؤلاء الفرسان القلائل كيف اصطلوا
هذا الحرب بانفسهم فلما عاين السلطان سليم الامر بخلاف ما امله

ودخل

ودخل الليل ايس من اخذهم ونادى فى عسكره بالانفصال فما
كانت غير ساعة حتى رجع عسكر الروم تحت سنجقهم وصار الامير
شريك يشتمهم ويقول لهم بلسان تركى اذهبوا الى شوم بختكم
يا علوج الروم يا كفرة يا فجرة وعسكر الروم ايضا تشتمه وتقول
له ان شاء الله تعالى يا معرص نقطع رأس طومانباى ورأسك
ونخليهم تحت ارجلنا مثل رأس الكلب وننيك امك وامرأتك
يا نصرانى يا ابن النصرانى يا كبشة حرامية يا عرصات يا ملاعين
يا خنازير اى شئ لكم نسبة بالسلطنة او الامارة يا كفرة يا مماليك
لو كان على راسكم دولة كنتم تعملون سياسا عند سلطاننا لان
سلطاننا خير السلاطين وسلطان الخواقين ونحن غزاة الاسلام
وعززنا الله على الاعراب والاعجام كلنا مجاهدون مع الكفار
والفجار وما نحن مثلكم اشرارا ولا كفار لعنة الله عليكم وعلى
من اتبعكم الى يوم القيمة فرجع الامير شريك لينظر محلا ينزل فيه هو
وجماعته فقال له الامير يحيى بن الامير ازبك صاحب بركة الازبكية
انزلوا على شاطئ النيل تجاه عدونا فقال الامير شريك هو رأى
صواب غير انى عندى رأى اصوب منه وهو ان بالقرب منا بركة ماء
على الطريق فربما ان السلطان طومانباى يرسل لنا احدا او يأتى
هو بنفسه فلا ينظر الينا ولا يعرف فى اى جهة نحن فاستصوبوا
رأيه فما لبثوا غير ساعة الا وقد اقبل عليهم خمس فوارس من عند
السلطان طومانباى فاجتمعوا بالامير شريك واخبروه ان
السلطان نازل على دهشور وهو مشغول الفكرة عليكم وما جاء
عنكم خبر الا عند الغروب فهم ان يأتى اليكم فرأى النهار قد ولى
وبلغه ايضا ان عرب غزالة قد حاربوكم مساعدة لعدوكم فساء
ذلك وانقبض خاطره وبقى متحيرا فى نفسه فقال الامير شريك
ليته قد جاءنا فى ذلك الوقت والله لو جاءنا وقت الحرب وسعفنا

بالطعن لهم والضرب لاخذ ناهم عن آخرهم فان الروم ليس لهم عزم
ولا قوة الا رمى النار ولما بطل رمى النار ولم يبق الا السيف والعود
م عاد لهم قدرة على ذلك ولو ان السلطان طومانباى صح منه الرأى
كان جاءنا على الفور ولكن الله اعلم ان دولتنا قد ولت وانقضت
فانى نظرا ان الرأى والصواب ننساه ولا نعرفه حتى يفوت وقته
واوانه والرأى الخطأ نتبعه فهذا دليل على الزوال ولا شك ولكن
لا دافع لله فيما قضى والله تعالى يعلم اننا لم نقاتل فى حظ
انفسنا وانما قتالنا عن انفسنا وحريمنا وعن ديارنا واموالنا
واولادنا فانه قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز فمن اعتدى
عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم والله تعالى يعلم انهم
باغون علينا وقد قال تعالى ثم بغى عليه لينصرنه الله وقد اسلمنا
امرنا اليه تعالى وهو يفعل فى ملكه ما يريد ويحكم فى خلقه
ما يشاء ثم قال له القاصد ان السلطان امرنى ان ساعة وصولى
اليك لا تتأخر ساعة واحدة وتحصله على ضيعة وردان فانه
ينتظركم هناك فعند ذلك امر الامير شربك بالرحيل ليلا وترك
الحرب واختار الهروب وقال من كان منا يتبعنا وقام من ساعته
وامر بالرحيل خوفا من سطوة سيف السلطان سليم فلما بلغ
مناه وخجل عن دعواه قال له بعض الامراء فان تبعنا العدو فى
هذا الليل كيف نصنع فقال لهم وهل سمعتم ان الروم تقاتل
ليلا ابدا وما رأيتم لما ان دخل الليل كيف بيتوا ابن عمكم فلما
سافروا ومروا على الروم من بعيد لم يخرج اليهم احد وقال
السلطان سليم لا احد يتبعهم منا فانهم ربما فعلوا ذلك مكيدة
لكم وحيلة عليكم وفرح السلطان سليم بمرورهم لجهة البحر
المالح فلا زال الامير شربك سائرا طول الليل الى ان طلع النهار
وهم فى الوراق واذا بالسلطان طومانباى نازل هناك فلما رأى

على بعد امر السلطان جميع من معه من العسكر ان يذهبوا الى ملاقاة
الامير شريك فارس الزمان فلاقته العسكر احسن ملتقى ودعوا
له وفرحوا بسلامته فلما قرب من السلطان اراد ان ينزل عن
فرسه فأقسم عليه السلطان طومانباى ان لا يترجل احد منهم
عن مركوبه فامتثلوا قوله وسلموا عليه وهم على ظهور الخيل وسار
السلطان طومانباى والامير شريك عن يمينه والامير قيت الرجبي
عن يساره ومن ورائه الامير ابرك راس الجلبان والامير قانصوه
كرت فلما وصل السلطان الى اوطاقه ترجل عن جواده وترجل
الامير شريك وبقية الامراء والاجناد وجلس السلطان على الارض
من غير كرسى وكذلك الامير شريك وبقية الامراء على قدر مراتبهم
فقال السلطان للامير شريك اخبرنا يا اميرنا بما وقع لك من الروم
وبما فعلت فى محاربتهم فقال الامير شريك والله يا مولانا السلطان
وقع لنا معهم حرب يشيب الاطفال فى المهد يلين لعظمته الحجر
الجلمود وكنا غير الظافرين عليهم والغالبين لهم وقد كسرناهم حتى
رميناهم البحر ولكن ما سلمنا من عرب غزالة فانهم هم الذين عاقونا
عن مطلبنا وصدونا عن مقصدنا ومنعونا عن غرضنا وانى والله
العظيم رب زمزم والحطيم لو ثبت معى الالفان الذان خرجت بهم
من عندك ما كنت رجعت عنهم وكنت قسمتهم قسمين قسم يقاتل
الروم وقسم يقاتل غزالة وما كانا بتنا الا فى مصرنا ولكن ما شتتهم
الا هذه النار التى يرمون بها فما يشعر الانسان الا وهو مضروب
بها وما يعرف من اى جانب جاءته فان غالب عسكرنا لم يقتل منهم
احد بالسيف الا القليل ولكن هذا ما جرت به المقادير من الرب
القدير ونسأله اللطف والتدبير الا له الحكم واليه المصير ثم قال
الامير شريك والله يا مولانا السلطان لو حزمت امرك وضبطت
رأيك لكنت لما سرت انا والالف فارس وقاتلت العدو وضربت انت

وسرت وجئت بشيء يسير من خلقي وقاطعت على العدو ومن ورائهم لكنا اخذناهم مواسطة من قبل ان تأتيهم بقية العساكر وعربان غزالة وما كانت بنا الا في مصرنا وكان انفصل الامر بيننا وبينهم واستراحت قلوبنا من هذا العنا فان السلطان سليما كان معه نحو عشرة الاف وكانوا نقاوة عسكره واتباعهم نحو العشرين الفا ولكن ما كنت انظرهم في الميدان الا كالبهائم ليس فيهم من يسوق حصانه في حومة الميدان الا ان يكون چركسيا منا من الذين خانوا ابناء جنسهم وذهبوا اليه فالله يجود للخائن والله اعلم ان دولتنا دعائمها قد مالت وايامها قد زالت والحادي ان الرأي الصواب ننساه ولا نذكره حتى يفوت ويمضي حكمه وان الرأي غير الصواب نتبعه ولو تعلق بالسما وهذا مما يدل على الاضطراب والانقلاب فنعوذ بالله من العكس في الاسباب التي توجب الى الذهاب من غير اياب ومن اعظم مصيبة تحير فيها عقول ذوي الالباب فقال له السلطان طومانباي دع عنك الافكار والغم بما فات واعمل الرأي فيما هو آت فقال الامير قيت الرجبي صدق السلطان فيما قال اضربوا لكم رأيا فيما تفعلون فان العربان صارت كلها اعداء لنا وعونا للعدو ونا وليس فيهم من يقاتل معنا ولا يكافح عنا لانه ما منهم احد الا من قتلنا اما اباه واما اخاه واما ابنه واما ابن عمه واما واحدا من اقاربه وذلك لما كانوا يعصون علينا فهم الآن كل واحد منهم يطالبنا بثاره القديم واما عدونا فانه قد جاءهم جديدا وليس بينه وبينهم شيء من العداوة ولاتاهم منه الا الخير فانه تذهب اليه اكابرهم فيعطيهم ويرضيهم ويعلق آمالهم بجزيل المطامع ويحلف لهم انه لا يؤذيهم ولا يقتل منهم احدا ولا يأخذ منهم خراجا وانما يأخذ منهم العشر ويحكم بينهم بالعدل ولاسيما معه هذان

الشيطانان الخبيثان خيربك والغزالي وهما ارسلان شيوخ العربان
ويقولان لهم هذا ملك عادل مسلم ابن مسلم وسلطان ابن سلطان
الى سابع جد ويحب الخير والانصاف ويكره الظلم والاسراف
ويميلان قلوب الناس اليه ويعطفونهم عليه ويسميانه بالملك
العادل ويشكرانه لكل احد عاقل وجاهل وبعد هذا فما بقي لكم من
الراى الا ان ترسلوا قاصدا لقبيلة غزالة التى هى اشد القبائل
علينا وتوعدوهم بكل خير فلعل ان يميلوا الينا ويطيعونا فان
حصل ذلك كان خيرا وان ابوا فالاستعانة بالله خير لنا من كل
احد وغاية الامر الموت فانه امر لا بد منه فعند ذلك امر السلطان
طومانباى بكتابة كتاب الى عرب غزالة فاول ما بدا فيه بشيخهم حماد
ابن خبير ويخوفهم من الله تعالى وعاقبة المكر والبغى وحلف لهم
ان اطاعوه ودخلوا فى طاعته ليقابلنهم باحسن مقابلة وان
لم يقبلوا ذلك يكفوا عن قتالنا ولا يعارضونا فى قتال عدونا
فانهم كانوا يجتمعون على بعد من الحرب ويرسلون من ينظر لهم الخبر
فلما تقع الكسرة على الروم يرمحون رمحة واحدة على الجراكسة من
خلف ظهرهم فيضيقون علينا من هزيمة عدونا فلما ترى الجراكسة
الامر قد جاءهم من خلفهم يرجعون عليهم ليكفوهم عن انفسهم
ويردون عليهم فتصير الجراكسة فى الوسط فبهذه الوسيلة تغلب
الجراكسة غاية الغلبة فلما وصل كتاب السلطان طومانباى الى
حماد بن خبير مع رجل يسمى محمد شيخ البكارية قراه حماد بن
خبير وعرف مضمونه واعطاه لاخيه سلام فقراه الاخر وعرف
مضمونه قال سلام لمحمد شيخ البكارية انت يا محمد ما تعرف ما جرى
بيننا وبين الجراكسة وما قتلوا منا وكم يعطونا الامان ثم يغدرونا
فقال له محمد انما كان يفعل ذلك السلطان الغورى واما هذا
الرجل طومانباى فانه رجل صالح وفارس فالح وما سمعنا عنه

لاحد سوءا ابدا وانا ضامن لك عهدته فانه رجل صادق في
قوله وليس هو كالغوري فقال له سلام واخوه حتى ننظر
ان كانت العرب تطيعنا اولا ثم نادى في جميع عرب غزالة ان
تجتمع الاعيان منهم فاجتمعوا كلهم فقرأ عليهم كتاب السلطان
طومانباي فلما سمعوا قاموا كلهم قومة واحدة وقالوا لا سمع له
ولا طاعة ولا بيننا وبينه الا السيف فقال محمد شيخ البكارية
يا وجوه العرب اما ما قلتم عن السلطان الغوري فانه كله صحيح
وقد نظرتم كيف اخذه الله تعالى واما هذا الرجل طومانباي
فهل سمعتم عنه شيئا من الظلم والبغي قديما وحديثا فقالوا
لا ما سمعنا عنه سوءا ابدا لا في زمن الغوري ولا في هذا الآن
وانما هذه الطائفة دولتهم قد زالت وولت واوقاتهم مالت
وايامها ولت واعزاؤها ذلت ولو قمنا معه ونصرناه لا يفيد
ذلك بعد ان ولت دولته وان تركنا نصرة السلطان سليم
واعتزلنا لا نسلم من عتبه علينا فيما بعد ذلك بل ولا نامن على
انفسنا منه فانه صاحب البأس الشديد والاولى ان نجعل لنا عنده
يدا نامن بها على انفسنا فيما بعد وبعد ذلك لا تطل علينا في الكلام
واقتصر في الجواب فما بقي لك معنا كلام والسلام فلما ايس
منهم انثنى راجعا الى السلطان طومانباي واخبره بذلك فقال
لهم الامير شريك الآن قد بان لكم صحة قولي فقالت جميع الامراء
والله ان رايك في جميع الامور هو الصواب من يوم الريدانية
وانت تقول لا تدفنوا المدافع في الرمل وكان بردي الغزالي يقول
الصواب دفنها حتى لا ينظرهم احد وانما كان ذلك منه مكرا
وعنادا فلا لقاه الله خيرا فاعتنت جميع الامراء على دعائه عليه
وكان كذلك فلم يلق نصرا الى ان قتل اسوء القتلات وسيأتي
خبر قتله فيما بعد ان شاء الله تعالى فقال لهم السلطان طومانباي

يا امرايا اغوات الراى عندى ان نتوكل على الله ربنا سبحانه وتعالى
فان الامر بيده وما يضرنا اذا امتنا شهداء فان الله تعالى يعلم انهم
قد بغوا علينا وقد قال تبارك وتعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا
عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين
فما بقى لنا الا التسليم لله فى الامور كلها ونقاتل الى ان نقتل والسلام
واما حريمنا وذريتنا فالذى خلقهم هو ارحم بهم منا ثم قال يا قوم
نحن اقمنا ههنا يومنا وقد ثقلنا على اهل هذه القرية من جهة الاكل
والعليق والراى ان نرحل الى قرية ام دينار ثم امر السلطان بالرحيل
وقام من وقته وساعته فقامت جميع الامراء الذين بقوامعه من
الاعيان رأسهم الامير شريك والامير قانصوه العادلى والامير
قانصوه كرت والامير تمر نائب الاسكندرية والامير دولتباى
والامير ازدمر راس الجلبان وباقى الامراء الذين تقدم ذكرهم فما كانت
غير ساعة حتى وصلوا ام دينار وتلقاهم اهلها احسن ملتقى وباتوا
تلك الليلة فلما اصبح الصباح قدم عليهم خيال من اهل تلك البلاد وهو
يصيح بهم الخيل قد اخذتكم فما استتم كلامه حتى ظلم البر من شدة
الغبار وكثرة الخيل فلما لاح لهم ذلك الغبار ركبوا وخرجوا الى
الحرب والقتال فالتقوا من غير ترتيب اليمين والشمال والتقى الجمعان
فوقع بينهم من الحرب ما يعجز عنه الوصف فلله در الامير شريك
وقانصوه العادلى وما فعلوا هذا اليوم مع هذه الجموع واما الامير
قيت الرجبى فانه تصادم مع قانبردى الغزالى فى حومة الميدان
فاقتتلا قتالا شديدا حتى تحيرت النظار فيما وقع بينهما من الحرب
ثم تقارب بعضهما من بعض حتى تقابضا بالاطواق فلم يقدر قانبردى
الغزالى ان يتعتع قيت الرجبى من سرجه مع انه رجل كبير السن فى عشر
التسعين وقد قعد فى الحبس محبوسا سنين ومع ذلك لم يتغير
له لون فعلم الغزالى من نفسه الخسة ودخل عليه الجبن وقال

فی نفسه اذا کان هذا فعل هذا الشیخ الهرم فکیف لو وقعت مع شریك
ثم انه شجع نفسه واطلق الامیر قیت الرجبی ثم بعد عنه واستعد له
علیه بطعنة بقنطاریته من وراء ظهره قلبه عن جواده واراد
ان ینزل ویقطع راسه واذا بفارس صرخ علیه صرخة افلجه
وطعنه طعنة اسرع من خروج السهم من کبد القوس فوقعت
فی خاصرته قلبته عن جواده وانثنی ذلك الفارس راجعا الی الحرب
والقتال فالتهی الغزالی بنفسه عن الامیر قیت الرجبی فبادر الامیر
قیت الرجبی الی حصانه فرکبه ودکس خلف ذلك الفارس الذی
کشف عنه فاذا به الامیر شریك فدعی له من صمیم قلبه واراد ان
یکون معه فی القلب وما زال یشق الصفوف ویفرق الالوف حتی
عجز وکل وبطل جواده وکلت سواعده فلما علم من جواده العجز التفت
وانثنی راجعا حتی خرج من المعرکة فوجد خیلا اقبلت من کبد البر
لا یحیط بها الحصر واذا بهم عرب غزالة کان رسم لهم السلطان سلیم
انهم یجتمعون مع العسکر هناك ویقاتلون الجراکسة فصادفوه علی
هذه الصفة وقد بطل حصانه فرشقوه بالحراب فمنع عنه اللبس
فصادفه منهم سهم دخل فی فؤاده فوقع علی وجه التراب فنزلت علیه
النهابة فعروه واخذوا ما کان علیه وقتلوه هذا ما کان من امر قیت الرجبی
واما الغزالی فان ممالیکه سارعوا الیه لما رماه الامیر شریك وحملوه
الی ورا حتی دخلوه فی الوطاق واسقوه المسکر ووجدوا جرحه
سلیما واما الامیر شریك فلا زال یقاتل قتال الجبابرة والفراعنة
حتی کل من تحته الجواد وتضاعف علی الجراکسة المدد والاعداد وفاض
بحر الروم حتی ملأ السهل والواد وقصرت الطائفة الجراکسة لتقصیر
لانه کان هو طنبها والعماد وکثر القتل فی الجراکسة وزاد وطلعت
علیهم العربان التی فی تلك البلاد وصلحت علیهم المدافع والبنادق
وملأت الفؤاد وفی کل رمی کانت تتزلزل تلك البلاد فحضرت صفوف

الروم كالبحر الزاخر وبقيت الاحجار والرصاص نازلة كالامطار وصوت
المدافع صائحة والحديد مع الاجساد والروس طائرة قال الراوى
كان مع السلطان سليم ثمانمائة مدفع خلى منهم مائتين فى الشام وجاء
معه بمصر ستمائة منهم مائة وخمسون مدفعا كبيرة والبقية
ضربزانات كان طول كل واحدة خمسة وعشرين شبرا وكان يسحب
كل واحد من الصغار اربعة رؤس خيل واما الكبار فكان كل واحد
يسحبه ثلاثون او اربعون من الخيل وكان كل واحد منها مكسيا
بجوخ احمر ولما دخل مصر كان اول المدافع فى الريدانية وآخرهم
فى الخانقاه وكان عسكره كالنمل فى الوادى وكان على يمينه خيالة راكبون
كل واحد فى يده مزراق وفيهم بيارق حمر نحو عشرين وخمس
وعشرين الفا ومثل ذلك على شماله كلهم خيالة ببيارق صفر وقدام
من الينكجرية نحو عشرين صفا كل صف لا يعد وقدامه صفوف
بالاعلام والطبلخانات والوزراء والباشوات وكل من جابوه من الجراكسة
يقطعون قدامه وان كان رجلا كبيرا او ميرا شيعوه مكتفا الى
السلطان سليم ويقطعون رأسه قدامه وهو واقف فوق
الحصان وقدامه مكشوف والسعاة قدامه بطاسات من ذهب
نحو ثمانمائة وفرقة فى رؤسهم الريش الابيض مشاة وفى ايديهم
سهام يسمونها صولاق كلهم كانوا يقفون قدامه مربوطين الايدى
وهم ينظرون الى الارض بادب وفى رواية سبعة اعلام باسماء
اجداده مكتوب عليها اسماؤهم بالذهب واربعة وعشرون
علما باسم السلطان سليم وكان مكتوب فى بعضها انا فتحنا لك فتحا
مبينا وفى بعضها نصر من الله وفتح قريب وكان معه علم ابيض
اكبر من سائرها سألت عنه فقالوا علم الاسلام ونرجع الى سياق
الحديث وهم اى الجراكسة فى ذلك الحرب الشديد والقتل المزيد
اذ لاح لهم غبار حتى سد الاقطار فتنحى كل فريق عن الآخر حتى راوا

ما تحت ذلك الغبار فما مكثوا غير ساعة حتى وصلوا الخيل وهم يتصايحون بالقيس نحن فرسان غزالة ذوو الكفو والكفالة اليوم ترون يا بنو جركس الموت الاحمر وتذوقون من سيوفنا الوبال الاكبر ويفنى جمعكم وتفرغ كثرتكم وينقطع اصلكم وفرعكم وكان المتكلم بهذا الكلام اميرهم وكبيرهم سلام بن خبير واخاه حماد وهما كبراء القوم فقصد سلام بن خبير الامير قانصوه كرت فوقع بينهما انداب من الحرب تحير الناظرين وحمل كل واحد منهما على صاحبه واظهر فنونه وعجائبه وحملت فرسان غزالة على الجراكسة حملة واحدة وحملت الروم من الجانب الاخر واخذوهم مواسطة فلا تسأل عما قاسوا من الحرب والطعن والضرب فى ذلك اليوم فضايق سلام بن خبير الامير قانصوه كرت حتى رماه البحر وما بقى معه سوى عشرين نفرا من مماليكه والذين مع سلام نحو الالف او اكثر ولما وقع الامير قانصوه كرت فى البحر ثقل على الفرس من لبس الحديد وقد كان الفرس قد كل من الجرى فلم يقدر ان يعدى الى ذلك البر فغرق هو وفرسه وغالب مماليكه وذهب تحت المياه وما سلم منهم الا القليل فكان رحمه الله حسن السيرة والاخلاق وكان اذا رآه الانسان يقول تبارك الخلاق واما سلام بن خبير فانه رجع على الجراكسة رجعة منكرة وهو ينادى يا لأخذ الثار فوجد شريك على ما هو عليه من الحرب الشديد فلله دره من فارس الاعداء فارس فى ماتى فارس يقاتل الوفا فوقعت الجراكسة فى كفة النقصان فبينما هم كذلك وفى هذه الحالة واذا بعجاج قد ارتفع وارتفع الغبار وثار من ناحية ارض وردان وهم يصيحون بالنصرة لآل عثمان اليوم يا بنى جركس نذيقكم الهوان ويحل بكم النقصان فنظروا اليهم واذا هم قايتباى الغزالى ومن معه قد جاؤهم من جهة اخرى فبقيت الجراكسة لا يعرفون من يقاتلون والى اين يذهبون قال صاحب الحديث

ان القوم لما وصلوا ضربوا لهم ميدانا ثم ان الامير قانبردي الغزالي
الماهر في مزابنا جنسه برز الى حومة الميدان ونادى يا على صوته
يا آل جركس نظرتم قوتكم وشوكتكم ونظرتم ما تكون دولة آل
عثمان ودولتكم اين شجعانكم اين فرسانكم اين سلطانكم عرفتم
مقداركم وندامتكم وانا احد عبيد حضرة السلطان سليم الملك
العظيم صاحب القوة والجيش الكاسر منتشر العساكر قاهر القياصرة
كاسر الاكاسرة قاتل الفراعنة والجبابرة اما معكم احد من الشجعان
يبرز الى الميدان فقال السلطان طومانباى للخاصكى الذى بين يديه
ابرز اليه فبرز من وقته ولما صار في ساحة الميدان قال له ذلك
الفارس الذى هو قانبردى الغزالي يا خاصكى ادركتك منيتك
عليك حتى جئت بها الى الهلاك استغنم السلامة وارجع الى اهلك
فقال له الخاصكى وانت من اين يا انجس العرب حتى تبهتني بهذا الخطا
فان قانبردى الغزالي لما جاء فى هذه المرة لبس لبس العرب وتكلم
بكلامهم وتلثم حتى لا يعرف فما ظنه الخاصكى الا بدويا من عرب
غزالة ثم ان الخاصكى قام فى سرجه وطعن طعنة بالمزراق
فخرج من يده كالبرق الخاطف فلما نظرها قانبردى الغزالي جاءت
قاصدة صدره انحرف لها فى ظهر الجواد وخطفها من الهواء ثم صاح
على الخاصكى خذ حربتك فانك مقتول بها ثم هزها وطعنه بها فطس
عنها الخاصكى قصبر عليه حتى استوى على سرجه وعاجله بها قبل ان
ينظرها فوقعت فى نحره فوقع على الارض طريحا ثم ان قانبردى جاء
فى الميدان وطلب البراز كل ذلك ولم يعرفوه الجراكسة وما يظنونه
الا بدويا من الفرسان المخبورة فانهم لو عرفوه لرموا بانفسهم عليه
جميعا وقطعوه بسيوفهم فانه اول من خانهم واغرى عليهم عداهم
هو وخيربك فانه لولا هذان الاثنان ما كان السلطان سليم يجوز
ويدخل ارض مصر مع انه كان لا يتنزل عليه بعد اخذه ارض مصر ان

يعمل باشا من جانبه احدا من الجراكسة ولا يعطي لاحد ذلك من امراء الجراكسة لتقدم طاعته فانه كان له عزم وباس وعظمة وتكبر وتجبر وكان قهارا سفاكا للدماء ما كان يرحم في محل السياسة ولا يشفق لا على كبير ولا على صغير وكانت همته اذا عاش ان ياخذ الربع المسكون من ايدي الملوك المتنوعة ويصير هو سلطانا على جميعهم وكان سبب مجيئه الى مصر كثرة العناد الذي كان حصل من الامراء وقلة الاولاقة وعدم طاعته على السكة والخطبة باسمه وكان محركه خير بك ولكن لكل شئ آفة من جنسه فان تيمورلنك لما خرج على الملك الناصر فرج بن برقوق اخرب حلب والشام واطلق فيهما النار بعد ان نهب جميع ما فيهما ولا قدر ان يجوز ويدخل مصر وفي الحقيقة ان السلطان سليم زاد على تيمورلنك بهذه المدافع والبنادق والضربزانات التي اذا سيبوا منها طلقات تزلزل الدنيا وترعب القلوب ولكن اذا اراد الله بامر هيأ اسبابه ونرجع الى سياق الحديث فلا زال قانبردي الغزالي تبرز اليه الفرسان واحدا بعد واحد حتى قتل منهم عشرة فهابته الفرسان وقالوا قد تعجبنا من هذا الانسان فما عرفنا هل هو من الانس ام من الجن فقال لهم قانبردي يا آل جركس اريحوا انفسكم وابرزوا الى سلطانكم طومانباي اما ان يقتلني واما ان اقتله فلما سمع السلطان كلامه تعجب منه وقال الا تنظرون الى قوة هذا الفارس واقدامه وشجاعته وكثرة كلامه فهل فيكم من احد يكفيني شره فقال قلج انا يا مولانا السلطان فقال ابرز اليه وخذ حذرك فاني اراه سريع الحركات ولا يخلو ان يكون بطلا من الابطال المخبورة ولولا ان فرسي قد بطل لبرزت اليه ولا اظن ان فيكم احدا يقاسيه في فروسيته فقال له قلج انا اكفيك شره بعناية الله تعالى ثم برز اليه قلج وكان من الامراء الاربعين وقد كان تعين له ان يصير امير مائة

مقدم الف موضع الامير كرتباى الوالى ولوكان الامير شربك حاضر
فى ذلك الوقت ما تركه يبرز الى هذا الفارس فانه كان من شدة
محبته له يفديه بنفسه فى كل امر صعب وفى الحقيقة ان الجراكسة
لو عرفوا ان هذا الفارس هو قانبردى الغزالى ما برز اليه احد
السلطان طومانباى بنفسه او الامير شربك فانهما يرجحان عليه
فى الفروسية ثم نزل اليه الامير قلج وحمل عليه فوقع بينهم من الحرب
انذاك حتى تعجبت الناس من هذين الفارسين ثم ان الامير قلج ضرب
قانبردى ضربة على رأسه بالسيف قطعت الخودة ونزلت الى
الرفادة والستائر فجرحته جرحا خفيفا فضرب قانبردى الغزالى
ضربة الى يمين الامير قلج فابراها كما تبرى القلم فوقعت الى الارض
هى والسيف فبهت الامير قلج واندهى وتخبل فهجم عليه قانبردى
وضربه اطاح رأسه عن جسده فلما عاينت الجراكسة ذلك عسر
عليهم قتل الامير قلج وقالوا ما يقايس هذا البطل الا الامير شربك
او السلطان طومانباى ثم ان هذا الفارس جال فى الميدان يمينا
وشمالا وصار يعجب بنفسه ويتمايل فى ظهر فرسه وصار يشتم
الجراكسة بالعربى ويقول لهم يا لئام غير كرام من يقاوم السلطان
سليمان ويقاوى سلطانه او يثبت بين يديه يا كفار يا فجار وافحش
فى كلامه حتى افحم قلوبهم وكل ذلك ولم يعرفوا انه قانبردى الغزالى
وقال لهم اذا كان سلطانكم يزعم انه فارس او يقاوم الفرسان
فليبرز الى حومة الميدان وينظر نفسه ان كان يربح او يقع فى كفة
الخسران فقال له السلطان طومانباى ها انت جئت الينا هات ما عندك
من فروسيتك وشجاعتك ولا تبق ممكنا فان السلطان طومانباى
قد تفرس فى القتال وصار القتال سجيته وصنعته فما بقى يتكلف
لشئ ثم ان السلطان طومانباى قال له انظر يا اخا العرب لا اقاتلك
ولا احاربك حتى اتكلم معك كلاما لعل ان يكون فيه صلاح لك فقال

له قل ما عندك فقال له السلطان طومانباى اريد منك ان تخبرني
من انت اولا وما الذى حملك على قتل فرسانى من غير اذية سبقت
مني اليك فانى والله ما ادركت نفسى ولا اعلم انى بغيت على احد
ولا ظلمت احدا ولا افتريت على احد وما امر سلطنتى هذه والله ثم
والله لم يكن فى غرضى ولا خاطرى وانما الامير علان والامير كرتباى
الوالى والامير شرهك ابرموا على وقالوا لا نرضى لهذا الامر الا انت
فعلمت انه امر ابتلانى الله تعالى به واما هذا السلطان سليم الذى ذكر
انه ملك عادل وانه لا يحب الجور كيف يجوز له ان يتعدى علينا
ويرمى علينا بالنار والمدافع والاحجار ويقتل رجالنا ويسبى نساءنا
واولادنا ونحن مسلمون مؤمنون موحدون قائمون بحماية الدين
فلما ان بغى علينا وتعدى حده وجب علينا ان نقاتل عن انفسنا واولادنا
وحريمنا واموالنا وفى ذلك اذن من الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى
فى كتابه العزيز وهو اصدق القائلين فمن اعتدى عليكم فاعتدوا
عليه بمثل ما اعتدى عليكم الاية ونحن فى الزمن الاول قدرنا عليهم مرارا
وعفونا عنهم وهم الآن قدروا فما عفوا وملكوا فما رحموا وفعلوا فينا
ما لم يفعلوه فى عبدة الاصنام والصلبان وهم جيرانهم ومجاورون لهم
واما نحن فانا مسلمون موحدون فانى سألتك بالله تعالى وبمحمد رسول
صلى الله عليه وسلم ان تكون معنا ونكون نحن وانت اخوانا من الآن
او تتركنا لا لنا ولا علينا ونحن نستعين بالله تعالى عليهم وتكفينا شرك
وان اخترت الحرب والقتال فانى لا اقاتلك الا ان عرفتنى بنفسك فانك
قد قلت لا اريد الا انا فها انا قد جئتك بنفسى فعرفنى بنفسك واكشف
لثامك فانى متحير فيك واشكل على امرك فلا انت بدوى تعرف ولا جركسى
تعرف وكلامك لا يشابه كلام الروم ولا كلام العرب وانى اقسم عليك بالله الذى
خلقنى وخلقك الا ما اخبرتنى من انت فكشف له اللثام فاذا هو
قانبردى الغزالى فلما رآه السلطان طومانباى غاب صوابه من شدة

القهر وقال له يا ابن الف قرنان ونسل اولاد الزنا اللئام يا خبيث
يا ملعون يا ابن الملعون يا خائن يا ابن الخائن وهذا اتبعت الخوان
فان الذى ذهبت اليه وصرت من حزبه شهرته الخيانة فان اسمه
سليم خان ومن خان لا كان وانت ايضا قد عاهدتنا وخنتنا وعاكستنا
واغريت علينا اعداءنا فيا لله العجب كيف طابت نفسك الخبيثة
بذلك ولكن صدق الله العظيم الخبيثات للخبيثين الآية ثم ان السلطان
طومانباى حمل عليه حملة منكرة فما ثبت بين يديه الا وقد طعنه
السلطان طومانباى طعنة بقنطاريته قلبه عن ظهر فرسه
ثم وضع القنطارية على صدره واراد ان يقتله بها فقال له انى
سالتك بالله تعالى وتوسلت اليك برسول الله صلى الله عليه
وسلم وبسر شيخك سيدى ابى السعود الجارحى ان تجعلنى عتيقك
فى هذا اليوم فلما سمع السلطان طومانباى ذلك القسم رق
قلبه له وذلك من كمال ايمانه فقال له على شرط انك تكفينا شر
هذا العدو الذى جئت به الينا وبشرط انك لا تسحب فى وجهه احد
من آل جركس سيفا فحلف له الغزالى على ذلك وقد شدد عليه فى
الايمان فعند ذلك رفع السلطان القنطارية عن صدره وقال له
قم يا خبيث فقام الغزالى وهو ينفض التراب عن راسه وجاء الى رجل
السلطان وقبلها فى الركاب ودعا له وهو يكاد ان يبكى ندما على ما فعل
وسار الى فرسه وركبها وقال لجماعته ارجعوا عن القتال فقد حلفت
له انى لا اقاتله وانى واف له بالايمان ولكن اخاف اذا رجعت اليه
يقتلنى وانى راجع من هنا الى محل آخر اقيم الحرب فيه واعز الملبوس الذى
رانى لابسه واما طومانباى فانى لم اره الا الآن ولنه قد زالت لانه
لو قتلنى لاكفى شرى ولكنه قدر على وعفى عنى الى ان وصلت السكين
الى العظم ثم انه قصد نحو سنجق السلطان سليم وفى هذه الساعة
وصلت العساكر التى خلاها السلطان سليم مع الوزير يونس باشا

في مصر لما عدى الى بر الجيزة لقتال الامير شربك وطومانباي
وكان السبب في قدومهم ارسال مكاتيبه الى يونس باشا في الليلة
الماضية يأمره بان يعدى الى بر انبابه بجميع من معه من العساكر
ولما وصلت هذه العساكر في تلك الساعة الى السلطان سليم اشتد ظهره
وقويت نفسه واما السلطان طومانباي فانه لما عفى عن الغزالي
ورجع الى سنجقه لم يرتحنه الاجماعة قلائل من مماليكه وبقية
الامراء تشتتوا في الحرب والطعن والضرب ولكن الكثرة غلبت
الشجاعة فلله درهم من فئة قليلة تقاتل هذه الجموع والعساكر التي
لم يعلم لها اول من آخر فاندهشت عقولهم وتحيروا في امرهم فقال
لهم الامير شربك والامير قانصوه العادلي يا آل جركس اثبتوا فان
القتال ليس بكثرة العدد والمدد وانما هو بزيادة الصبر والجلد
واقرؤا قوله تعالى كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله
والله مع الصابرين وها انا امامكم وفريد عصره السلطان طومانباي
نصره الله تعالى يرد عنكم فدونكم والحرب ما دمنا في قيد الحياة فلا
تخافوا من احد ولا يغرنكم كثرتهم فاني وعزة الله تعالى لولا هذه
النار التي معهم لقاتلتهم بنفسي ولا اكترثت منهم احدا فاني عارف
فيهم فارسا فارسا اجمعهم بكره وفره ليس لهم باس الا بهذه المدافع والبندقيات
وذلك لا يفيد منهم شيئا لان كل انسان جعل الله له عمرا لا يزيد
بهروبه ولا بثباته ينقص وقال العارفون الشجاعة صبر ساعة
واذا هم بغبار قد ثار من جهة الميمنة فنظروا اليه واذا ايضا بآخر وغبار
قد ظهر من جهة الميسرة ثم بصياح وغبار قد ظهر من خلف ظهورهم فتحيرت الجراكسة
في انفسهم الى اين يذهبون وسبب ذلك ان قانبردى الغزالي لما رجع منهزما
من السلطان طومانباي الى السلطان سليم واخبره بانه صد منهم
وقتل منهم عشرة فوارس ولكن شربك وطومانباي وقانصوه
العادلي حجبوني عن مرادي فاخترت الرجوع اليك بشئ اريد ان افعله

فغي ساعته نشيل الجراكسة فقال له السلطان سليم وما هو يا ابا
منصور قال تامر اياس باشا اغاة اليكنجرية يذهب من جهة وأنا
اذهب بمن معي من جهة اخرى وتامر يونس باشا ان يأتي من جهة بمن معه من
العساكر وانت بمن معك من جهة اخرى ونطبق عليهم فانهم فئة قليلة ما يثبتون
معنا الا ساعة واحدة فقال السلطان سليم نعم الرأى ثم امرهما اشار به
قانبردي الغزالي فما مضى غير ساعة حتى تفرقوا كما تقدم ثم احاطوا
بالجراكسة من كل جهة وجاءت عرب غزالة من جهة اخرى
والسلطان طومانباى والامير شربك والامير قانصوه والامير
يحيى بن ازبك والامير ابرك راس الجلبان والامير دولتباى والامير
زمان المتاسف انظر ما فعل هؤلاء الفرسان القليلة في هذه
الالوف المؤلفة والجموع التي لا تحصى من الكثرة من كل جنس فصارت
هذه الامراء المذكورون متحدين الركاب في الركاب لا يفارق بعضهم
بعضا وبقية العساكر خلف ظهرهم وهم دائرون في وسط هذه
العساكر لا يدرون اين يذهبون ولا من يقاتلون وما قتل من الجراكسة
احد بالسيف والعود وانما كان القتل فيهم بالبندق واما
الامراء المذكورون لم يجرح منهم احد وفي هذا اليوم قتل من الجراكسة
اكثر من كل يوم بهذه العملة التي عملها قانبردي الغزالي وغالب
القتل ما كان الا بالبندق والضربزانات وولعت النيران على سائر
الصفوف وتم النهار ونادى منادى الحرب بالانفصال وافترقوا
على هذا الحال وقد تخلت الجراكسة عن بعضها ورجعوا وهم لا يعرف
بعضهم بعضا من شدة ما حصل لهم من هول ذلك اليوم وليس
الخبر كالعيان قال الراوي ونزل السلطان سليم على قرية وردان
ونزل السلطان طومانباى على قرية اسفل منها على شاطئ النيل السعيد
بحيث ان كل عسكر منهم ينظر الاخر رأى العين وباتوا تلك الليلة
في اسوء الاحوال من شدة ما حصل لهم من القتال ثم جلسوا بعد ما اكلوا

الطعام الذي جاء لهم من تلك القرية التي باتوا بها واخذوا
في ضرب كراي فقال لهم السلطان طومانباي والله يا اخواني
ما اظن الا ان دولتنا قد زالت فانني ارى اننا كلما فعلنا شيئا
نريد ان يكون فيه المصلحة فما يكون امرنا فيه الا بضد ما نريد
وارى ان اعداءنا امرهم يزيد فكم قتلنا منهم من الوف ومع ذلك
ارى الامر كلما له يزيد وان الغالب على ظني زوال ملكنا وان الظفر
لعدونا فانظروا قول القائل

ان اقبل السعد قم قائما   واقتبس من الثلج ان شئت نارا
وان رحل السعد فارحل له   فما الثلج في العكس الا خسارا

ثم ان السلطان طومانباي قال لهم يا قوم ان هذه الواقعة اضرت
بنا وهدمت قوتنا بفقد الامير قانصوه كرت فانه كان ركنا ولا
بقي لنا راي الا ان نذهب الى حسن بن مرعي وابن عمه سقر شيوخ عرب
محارب فاني قد وليتهم عليهم واطلقت حسن بن مرعي من الحبس بعد
ان كان المرحوم السلطان الغوري كتب على قيده مخلد وقد اطلقته
لما ان صار الامر لي واخذت عليه العهود والمواثيق والايمان المغلظة
انه يكون معي ظاهرا وباطنا ويقوم معي بالقلب والقالب اذا احتاج
الامر لذلك وما ارى احسن من سيرنا اليه ونكون نحن وهو على قلب
رجل واحد ثم بعد ذلك ندبر امرنا وننظر ما يكون من جانب الله تعالى
وهو يعلم انهم باغون علينا ثم انه امر بالرحيل من وقته وكان
ذلك الوقت نصيفا لليل فقال له بعضهم فان قام العدو علينا في
هذا الليل فكيف يكون الامر فقال له السلطان هل رايت او سمعت
ان الروم تقاتل ليلا فهذا الامر لا يكون وانما اعتماد هؤلاء القوم على
النار والرماة مشاة لا يقدرون على المشي بالليل فما كانت الا ساعة
حتى ركبوا وساروا من وقتهم وهم مستيقظون لانفسهم حتى
وصلوا الى مدينة سخا وكان حسن بن مرعي وابن عمه شكر قاطنين بها وعربهم

منتشرين بها الى سنهور فنظروا الى خيل السلطان طوما نباي وقد
اقبلت فبادروا الى خيلهم فركبت الفرسان وسادات القبيلة وركب
الامير حسن بن مرعي امير العرب والحاكم على تلك البلاد حتى قارب
عسكر السلطان فترجل عن جواده هو واولاد عمه وعشيرته ثم
قدم عليه السلطان وقدم هو على السلطان فقبل يديه وطلب
من السلطان ان ينزل الى منزله للضيافة فقال له السلطان
ما نحن قاصدون للضيافة ولا لغيرها والعدو في اثرنا وقامت
علينا العربان من عرب غزالة لا لقاهم الله خيرا خصوصا سلام بن
خير لا تسلمه الله تعالى وما جئت لك الا لتنظر لنا محلا نحتمي فيه
ثم ندبر امرنا فيما فيه الصلاح لنا فقال له الامير حسن اذا كان الامر
كذلك انا اعرف لكم محلا يقال له الغابة وهو واد كبير واسع
وافر المياه اذا تحصن فيه القوم ووقف على بابه رجل واحد
منع من يدخل ولو كانوا الوفا من الناس فان هذا الوادي لا يمكن
ان يدخله غير فارس ولا يمكن ان يدخل منه اثنان متسايرين لان
لانه ضيق جدا ومن الجانبين ارضه بوسخة كل من نزل بقدمه
وداس عليها صاخت به وهذا الوادي هو قلعتنا اذا قصدنا احد
من اعدائنا وعلمنا انه لا قدرة لنا عليه نذهب الى هذا الوادي
فنامن على انفسنا منه فما لكم يا مولانا السلطان اعدل منه ولا
احسن منه فقال له السلطان اركب وسر بنا على بركة الله اليه لعل
الله ان يحفظنا به ونتحصن وما يكون الا ما يريده الله فساروا ومن
وقتهم حتى وصلوا الى فم الوادي الذي يدخل منه اليه فلما راه السلطان
وقف وغطس قلبه وانقبض خاطره وحس بقلبه انه لا يحصل له
من هذا الوادي خيرا ابدا فحبس فرسه ووقف مكانه وتحير في
امره والتفت الى امراء دولته وقال لهم الا اخبركم بمنام رايته من
مده يومين رايت نفسي اني في هذا الوادي بعينه وانا على

جانب البحر المالح وقد قامت فرتينة عظيمة واظلمت الدنيا ولا بقي
احد مع احد واذا بخمس كلاب سود قد احاطت بي واردت ان
تفترسني فجذبت سيفي واردت ان اضربهم به واذا به قد طار
من يدي وسقطت عمامتي ودقت الكلاب علي وقبضوني
فصرت بينهم كقطعة لحم كل واحد ينتشي من ناحية فأيست
من نفسي فانتبهت مرعوبا وقد عمني العرق فلما سمعوا منه الامراء
هذا المنام تشوشت خواطرهم وقال بعضهم ان هذه الرؤيا
لا تدل على خير وان هذا مما يدل ان الظفر لعدونا والنصرة له علينا
فان وقوع العمامة يدل على زوال المنصب واما قيام البحر فانه
قيام هذا السلطان علينا واما عدم السيف فانه يدل على عدم
القوة واما الكلاب فانهم رؤس الاعداء يقبضون عليك ولا حول
ولا قوة الا بالله العلي العظيم فان صحت هذه الرؤيا فقد والله
زالت دولتنا وانقضت مدتنا فقال لهم السلطان ما بقي لنا حيلة
نحتال بها ولا منعة نستعين بها قد قاتلنا حتى تلفت نفوسنا
وتثلمت سيوفنا وقد قامت الدنيا كلها علينا فما عسى ان نصنع واما
انا فقد اردت ان اسلم نفسي فان كان قد بقي في عمري بقية
فانهم يعطوني الامان وان كان قد فرغ فان كنت على فراشي فاني
اموت واما انتم بالاعوات فقد حالتكم فليذهب كل واحد منكم
في ناحية الى حيث شاء واراد فلما طال الوقوف قال الامير حسن
ابن مرعي يا مولانا اني اخاف عليكم ربما ان يكون العدو قريبا منكم
فيعسر عليكم الدخول من مضيق فم الوادي فادخلوا بنا على بركة
الله تعالى ثم بعد ذلك اجلسوا واستريحوا ودبروا امركم كيف
تختارون قال الناقل فدخل السلطان طومانباي من باب الوادي
ودخل وراءه الامراء والاجناد فقالت الامراء نحن معك لا
نفارقك حتى تذهب ارواحنا فلا زال بهم حسن بن مرعي الى ان اوصلهم

الى صدر الوادى فضربوا للسلطان خيمة على تل عال على جانب
البحر المالح ونزلت بقية الامراء فى خيمهم فما هدأت نفوسهم حتى
جاؤا للسلطان لضرب الرأى واما حسن بن مرعى فانه اخذ اذنا
من السلطان ليرجع الى بلاده ويأخذ لهم الاخبار ويرسل
لهم يعلمهم بما يقع بالتفصيل فاذن له السلطان فى ذلك ودعى
له ثم قال السلطان لامرائه هذا الوادى خير لنا من قلعتنا التى
كنا بها ما لم يخنا حسن بن مرعى فقالت الامراء كلهم عن لسان واحد
الله يخون الخائن ثم رجع حسن ودخل منزله فسألته امه عن
السلطان طومانباى فقال لها قد ادخلته فى وادى الغابر وها
أنا قد رجعت فقالت له امه فما تحب ان تصنع اخبرنى بما فى
ضميرك فقال لها ان هؤلاء القوم دولتهم قد ولت وامورهم
قد حالت ولاسيما وعدوهم قد ملك البلاد وحكم العباد وولى
وعزل من اراد وهؤلاء ما عاد لهم عن الامراء ظهور خليهم وقد
تحيرت فى امرى فان قاتلت عنهم فلا قدرة لى على ذلك وان قاتلت
معهم اوقعت نفسى فى المهالك فقالت له امه وكانت من
الصالحات يا ولدى الايمان والعهود التى قد حلفتها انت وابن
عمك له ما تقول فيها فقال لها ولهذا انا متحير فى نفسى كيف اصنع
فهو فى هذا الكلام مع والدته واذا بفرسان القبيلة قد جاؤا
مسرعين وقد علت اصواتهم وهم ينادون اركب يا امير حسن
فاننا ننظر عسكرا جرارا وخيلا ملأت الاقطار فركب حسن بن
مرعى وسار فى اول الخيل حتى اجتمع باوائل العسكر القادمين
واذا بهم عسكر السلطان سليم قد جاؤا فى طلب السلطان طومانباى
والسبب فى ذلك ان السلطان طومانباى لما ركب فى الليل
كما تقدم ولم يتبعه احد وطلع النهار جلس السلطان سليم وحوله
اكابر دولته وجاء الامير خيربك ولم يأت الامير قانبردى الغزالى

فسأل عنه السلطان سليم فقيل له انه ركب نصف الليل ومعه
خمسة انفار من مماليكه وتبع السلطان طومانباى فهو الى الان
لم يأت فخاف عليه السلطان سليم وقال لخيربك انظر الى قلة
عقل صاحبك كيف يخاطر بنفسه فانهم ان فطنوا به لا ينجو منهم
ابدا وانا ان قتل تعطل امرنا وخشى السلطان ان يطول عليه الامر
وحسب حساب الاعادى التى حول مملكته قال فما الراى عندكم قالوا الراى
ما يراه الخنكار واطرق راسه متفكرا فيما يصنع واذا بقانبردى
الغزالى قد اقبل فلما حضر بين يدى السلطان سليم قال له اين كنت
يا قانبردى قال يا مولانا السلطان انى لما رحل طومانباى نصف
الليل احببت ان انظر الى اين يذهب فركبت وتبعتهم على بعد خشية
ان يدركونى فرايتهم قد سافروا الى ناحية البحيرة او الغربية
فلما سمع السلطان سليم ذلك الكلام قال له فما الراى عندك فقال
الراى عندى ان تعطينى ما اريد من العسكر ويكون صحبتى الامير
خيربك واسترح نفسك فانى ارجوانى لا ارجع لك الا به او براسه
فقال له السلطان العسكر بين يديك خذ معك ما شئت منهم
فاختار ان يكون اياس اغا اغاة الينكجرية باربعة الاف معه وخيربك
باربعة الاف خيال فامر السلطان بذلك ففى الوقت برزت هذه العساكر
وامر على العساكر فرهاد باشا يكون سردار عليهم والامير خيربك
والغزالى يكونان تحت يده ويتقيدون برايه فساروا فى اثر السلطان
طومانباى وهم يسألون من اهل البلاد حتى نزلوا على قبيلة محارب
وخرج لهم حسن بن مرعى كما تقدم فلما اجتمع بهم قالوا له انا سائرون
فى طلب السلطان طومانباى هل سمعت عنه خبر الى اين يذهب
فقال لهم الذى يدلكم عليه ويسلمه لكم من غير حرب ولا قتال ماذا
يكون له عندكم فقالوا له ان اردت شارطناك على مهما تريد وان
جعلت الامر لنا ولسلطاننا ولمروءتنا فيكون الذى يحصل لك اكثر مما

تؤمل انت فقال لهم على تسليمه لكم ولجعل الامر بيدكم فضمن له
الوزير فرهاد باشا ان يقدمه عند السلطان على جميع مشايخ العرب
وان يقطع ارضه اقطاعا له الى ان يموت لا يؤخذ منه الدرهم
الواحد ثم ان الوزير فرهاد باشا خلع عليه قفطانا مذهبا من الخلع
السلطانية وخلع ايضا على ابن عمه شكر ووعدهما بكل خير ثم خرج
حسن بن مرعي وابن عمه وهما فرحانان حتى دخل على والدته فقالت
ماهذه الخلعة ومن اين جاءتك فاخبرها بما وقع له وانه التزم
لهم ان يسلمهم السلطان طومانباى فقالت له انسيت ما فعله معك
السلطان طومانباى قد اطلقك من الحبس وامنك بعد الخوف
وحلفت له الايمان بانك ما تخونه فكان جزاؤه منك ان تسلمه
لعدوه وتظن انك اذا فعلت ذلك تلقى خيرا بعده والله لئن فعلت
ذلك لاغضبن عليك غضبة تكون سببا لهلاكك فقال لها فما
الذى افعله وقد رهنت لسانى معهم بانى اسلمه لهم واذا لم افعل
ذلك ما سلمت من شرهم وربما يبطشون بى فلا ينفعنى لا انت
ولا هو فقالت له ان الرأى الصواب ان ترسل فارسا للسلطان
طومانباى وتخبره بما وقع وانه يكون على اهبة ان شاء حاربهم وان
شاء هرب الى جهة اخرى واما انت فارجع اليهم وشاغلهم الى ان
يطيب الطعام فبينما هم يأكلون يكون طومانباى قد عدى بلادا
بعيدة او يكون قد تهيأ للحرب فتخلص انت من الجهتين فوافقها على
ذلك وخرج من عندها وهو متردد كيف يصنع ويقول لنفسه
اين عقلك تقتدى بكلام النساء الناقصات العقل والدين
وتترك ما يحصل لك من السلطان سليم من العز والجاه والتخر على
العربان بسبب من غدرت به الايام والليالى وفاتت دولته
وانقضت مدته واذا لم امسكه انا مسكه غيرى وفاز بالفخر
والعز فليس هذا من الصواب فى شئ ثم انه اجتمع بابن عمه شكر واخبره

بما قالت له امه فقال له سكر وهل عاقل يبيع عاجله بآجله ولا تميل
الى الكفة الناقصه فيحصل لك الخسران فاتفقوا على ان يكونوا مع
السلطان سليم واما السلطان طومانباى فقال لامرائه انى اريد
ان اخبركم بما رأيت فى هذه الليلة رأيت ان قائلا يقول لى رأيت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئك السلام ويقول لك ان
دولتكم قد زالت وعمركم قد فرغ وانت جارنا فى الجنة بعد اربعة
ايام ارجع عن القتال فلا فائدة لك فيه وانا قد عزمت على رمى
سيفى فى هذا البحر المالح وقال لهم كل واحد منكم يذهب الى حيث
اراد وهذا آخر اجتماعنا فى الدنيا والقيمة تجمعنا فى الآخرة قال
الناقل فبينما هم فى هذا الكلام الا وقد رأوا الخيل قد اقبلت عليهم
من بعيد فقامت الامراء كلهم على ساق وركب الامير شريك وبقية
الامراء واتباعهم وحطموا على عدوهم بقلوب كالحديد لكن العدو
كثير وهم طائفة قليلة لكنهم فرسان عارفون بركوب الخيل واولئك
كثير غير عارفين بذلك لكن اعتمادهم الاقوى على الرماية بالبندق
والضربزانات فلما رآهم الغزالى حطموا عليهم قال للعسكر فتحوا
لهم طريقا حيث ان طومانباى ليس هو معهم فصار من عسكر
الروم الذى يقرب على الجراكسة يقطعونه بالسيوف الى ان وصلوا
الى آخر الجراكسة وهرب بعضهم من مضيق الغابة الى الخارج واما
قانصوه العادلى فانه ذهب الى اصحابه من عرب قطارة وكان
معهم نحو الفى فارس راكبة مع القبائل التى جاءت لنصرة السلطان
طومانباى فلما رأوه ترك الحرب وفعل بنفسه هذه الفعالة تركوه
واخذوا اصحابهم ورجعوا وصحبتهم سيدى يحيى بن الامير ازبك
طلعوا من مضيق الغابة قبل وصول العسكر مع الذين هربوا واما
شريك الاعور فانه خرج قبل وصول العسكر وتبعه اثنان
من مماليكه وكان بينه وبين الامير احمد بن بقر شيخ العرب صحبه

كيدة بحيث ان الامير احمد هذا اذا كانت له مصلحة فى مصر وكان
ينزل الا عند الامير شربك فيقوم به الامير شربك احسن قيام و كرمه
غاية الاكرام وليس الخبر كالعيان وكان يقضى له جميع مصالحه من
جانب السلطنة ويقوم بناصره على اعدائه حتى ان الناس كانت
تقول لولا الامير شربك على الامير احمد بن بقر ما كان له حال
وكانوا يتعجبون من محبته له واكرامه وقيامه بشأنه ويحسدو
على ذلك غاية الحسد حتى ان الامير شربك كان يقول له يا امير
احمد طول ما راسى تعيش لا تحمل هما ابدا ولا تحسب حساب احد الا
السلطان الكبير فان الامير شربك كان يحسب حساب اقرانه لئلا يسعوا
فى هلاكه فانه كان فريد عصره فى الفروسية وركوب الخيل وكان
اذا ركب ونزل فى الميدان عند لعب الجريد مع الامراء تحير النظار
ولم يقدر احد يقبل عليه وكان من شدة محبته اذا حصل له
مضايقة من السلطان او من احد من الامراء الاعيان يذهب الى
صديقه الامير احمد بن بقر ويدبر امره ولما كان من امر السلطان
طومانباى ما كان من تركه القتال وتسليم نفسه للعدو وخرج
الامير شربك من الغابة قال فى نفسه ما لى اوفق من ان اسير الى
صاحبى الامير احمد بن بقر وانزل عنده حتى ادبر نفسى فيما افعل اما
انى اسافر الى بلاد العجم واكون مع سلطانهم او اسافر الى بلاد
اليمن ولله التدبير فيما يريد والشاعر يقول

تحذر من صديقك كل يوم ... وبالاسرار لا تركن اليه
سلمت من العدو فما دهانى ... سوى من كان معتمدى عليه

فما زال سائرا من بلد الى بلد والدنيا قائمة على ساق والعربان هاجت
والدنيا مايجت وصار كل مفعول جائزا وكل من كان له عدو
قصده فان ظفر به قتله والناس مرهابون فى بعضهم فى اشد ما
يكون حتى وصل الى النيل السعيد وعدى منه الى الشرقية ثم سار

الى ان وصل الى الامير احمد بن بقر اخر النهار وحده فى منية تمر فرحب
به وانزله فى بيته واكرمه غاية الاكرام ثم حكى للامير احمد بما
وقع لهم مع عدوهم من الاول الى الاخر فكلهم تعجبوا من السلطان
طومانباى لانه اخطأ فى هذه الفعلة التى فعلها وتسليم نفسه علا
يتحكمون فيه كيف شاؤا وكيف يرى الهوان بعد العز وكان يقاتل
الى ان يقتل ولا يسلم نفسه فانهم لا يبقون عليه ابدا وتبقى
الاهانة والذل وشماتة الاعداء اقبح واتعس فقال الامير
شربك قد تم الامر وذهبت دولتنا وما بقى كلام الا التدبير فى
المسير من هذه البلاد وقصد ان يرسل يأتى بحريمه وولده ويخرج
ليقصد بلاد اغير هذه البلاد فقال له الامير احمد بن بقر يا امير
قالت العارفون من تأنى نال ما يتمنى اصبر حتى ننظر ما يتم الامر
عليه فقال له الامير شربك اين عقلك حيث ان السلطان طومانباى
سلم نفسه لعدوه هل بقى لك بعد ذلك شئ فى غد تأتيك الاخبار
بانه صلب على باب زويله او علقت رأسه عليها هذا ما جرى للامير
شربك واما السلطان طومانباى فانه بقى وحيدا فريدا وقد رمى
بجميع عدته وسلاحه وملبوسه فى البحر المالح حتى المصحف الفولاد
الذى ليس له نظير فى الدنيا والقنطارية المفردة حتى الطبر الجناح
الذى لم يسمح الزمان بمثله فانه كان صاعقة من الصواعق لا يضرب
به على حديد الا قطعه ولا على حجر الا فلقه فكان من تحف الملوك
القدماء فعند ذلك حطمت عليه العساكر يقدمهم اياس اغا اغاة
الينكجرية وخيربك والغزالى وحسن بن مرعى فاقتضى رأيهم انهم
يقبضون عليه حيا ويأتون به للسلطان سليم يفعل به ما يحب
ويختار ثم امروا جميع العسكر ان يغمدوا اسيوفهم فانه قد رمى
سلاحه ولا بقى معه احد يقاتل عنه ففعل الجراكسة كما امروا
وعسكر السلطان سليم كذلك ثم حلقوا عليه من كل جانب وصار

بينهم

بينهم كالسبع فعند ذلك نزل اياس والغزالى وخيربك وجاؤا
اليه فقال له اياس اغا الامر امر الله تعالى فقم لمولانا السلطان
اجعل يدك اليمنى فوق اليسرى ولا تؤاخذنا فى ذلك يا مولانا
ففعل وربطوهما من قدام واوثقوهما فان الاعيان لا يكتفون
الا من قدام ثم قدموا له بغلة واركبوه عليها وقيدوه من تحت
بطنها واحاطت به اليكنجرية وبقية العسكر وجدوا فى السير
كانهم وقعوا بفريسة عظيمة او لقية ولو امكنهم ان يطيروا
به لطاروا فاخذ يتكلم مع اليكنجرية فسألهم عن حالهم وعن قدر
جوامكهم فقالوا الكل واحد منا ستة عثامنة الى عشرة عثامنة
فقال لهم انتم جئتم من بلادكم الى هنا لاجل ذلك فقالوا نعم
فقال لهم بارك الله فيكم وبهذا قد غلبنا سلطانكم لطاعتكم له
على هذا القدر اليسير والله ان جامكية احدكم لا تكفى ان تكون
جامكية سايس من سياسنا فوالله ثم والله لو تكونون عسكرى
لجعلت لكل واحد منكم دينارا فى كل يوم فقال بعضهم لبعض ما الرأى
نطلق هذا الرجل ونكون اعوانا له ونأخذ دينارا فى كل يوم
ونصير عنده فى اعز ما يكون فمنهم من استصوب ذلك الكلام ومال
اليه ومنهم من قال لا يغرنكم هذا الكلام فانه ما قال لكم ذلك
الا لما رأى نفسه وقع فى ايديكم وهل يكون هذا قط انه يصير
لكل واحد منا دينار فى كل يوم فوقع فيهم الهرج وما زالوا سائرين
به حتى وصلوا الى اوطاقة السلطان سليم وقد كانوا ارسلوا
اولا قاوقت قبضهم عليه يبشر السلطان بانهم مسكوه مسكا
باليد واعلموه كيف كان قبضهم عليه وان شيخ العرب حسن بن مرعى
هو الذى كان سببا فى ذلك لانه ما دلهم على موضعه الا حسن
هذا وانه حسن له عبارة فى دخوله فى هذا الوادى وجلسه فيه
وانه يستحق كل خير فانه لولا حسن هذا ما عرفنا له موضعا وذكروا

للسلطان جميع ما وقع وانهم قادمون به بالقيد والنبد بعد ان
كان قد رمى سلاحه فى البحر المالح وسلم نفسه بالامان وقد
تشتتت جميع عساكره ومسكناه باليد وهو واقف على جبل
عال بمفرده ففرح السلطان بذلك غاية الفرح وقال الآن ملكنا
ملك مصر فما تم الكلام الا وقد اقبلت العساكر ولهم ضجيج عظيم
فقام اوطاق السلطان على ساق حتى ان السلطان ارتاب من
ذلك وظن ان العدو قد هجم على اوطاقه فقالوا له البشارة
هذا اياس اغا وخير بك والغزالى قد جاؤا بغريمك فلما وصلوا
الى خيمة السلطان سليم خرج لهم الوزير الاعظم يونس باشا
وامرهم ان ينزلوا السلطان طومانباى واخبروه بالواقعة من
اولها الى اخرها وانه لولا الشيخ حسن بن مرعى هذا والا ما كنا
عرفنا له طريقا فشكره السلطان على ذلك ووعده بكل خير
فلما اصبح الله تعالى بالصباح امر السلطان ان يعمل الديوان
واظهر ما عنده من الزينة الملوكية ورتبوا له احسن ترتيب
وحضر جميع العساكر ووقفوا بين يديه على حسب مراتبهم واوكب
موكبا عظيما ووقف الينكجرية صفوفا على احسن ترتيب وكذلك
المدافع فى ناحية العسكر صفوفا وجهزوا النار وهم منتظرون
امر السلطان ان يطلقوا عليهم وعلى البنادق نارا وتندق الكاسات
والطبلخانات التى للسلطان والتى للوزراء والباشات والامراء
ثم امر باحضار السلطان طومانباى والامير حسن بن مرعى فلما
حضر السلطان طومانباى دخلوه من بين هذه العساكر ورأى
نظام العثمانية فى احسن ما يكون ونظر هذه العساكر وهذا
الترتيب الذى لا عين رأت ولا اذن سمعت ولما دخلوا به على
السلطان سليم خان سلم عليه بسلام الملوك فرد عليه السلطان
سليم كما يجب ولم ينقص مقامه فى سلامه ثم وقف طومانباى

فأمره بالجلوس فجلس وهو في غاية الندم على ما فعل وقال انى كنت
طيرا طائرا وكانت الارض واسعة اذهب الى حيث اريد واختار
فسلمت روحي لعدوى بيدى بئسما كانت فعلة فعلتها اوجبت
لى الهم والذلة كل ذلك خطر في نفسه وهو جالس لا يتكلم
ولا احد يتكلم ولا يرفع صوته ولا رأسه فنظره السلطان سليم
وتامله بعين الفراسة فوجد فيه كل شئ يشهد له بالشجاعة
والفروسية وكمال العقل شاهد له لا عليه فتعجب السلطان سليم
فيه كيف سلم نفسه بغير حرب ولا قتال ولم يكن له شئ فيه
يشهد بانه جبان ابدا بل انه اذا راه من لا يعرفه يشهد له بانه شجاع
بطل ثم ان السلطان سليما قال في نفسه انما هذا امر سماوى
اصابه وطالع نحس غرب عنه صوابه حتى رمى سلاحه وسلم
نفسه مع انه قاتل قتال الجبابرة ولا لو هرب كانت الدنيا واسعة
بين يديه ايما شاء ذهب وحيث طلب هرب ثم التفت اليه وقال
له يا طومانباى كم نهيناك عن القتال وعن سفك دماء المسلمين
اولا انى ارسلت لك من الشام ان تجعل السكة والخطبة باسمي
وانت مقيم على ملك مصر وانا ظهرك ومعين لك على سائر ملوك
الارض فأبيت ذلك وقتلت رسلى والرسول لا يقتل فسرنا
بعساكرنا لقتالك ورفعنا الاعلام ونشرنا العساكر على خراب
ديارك فاول مقابلتك في الريدانية هزمناك الى الصعيد وارسلت
اليك رسلا الى الصعيد ومعهم قضاة بلادكم فلم تقبل الصلح
وقتلت القضاة وتعديت شيم الكرام بقتل الرسل اولا وثانيا
ثم عاتبه عتابا كثيرا فقال له طومانباى والله انه لم يكن
شئ مما جرى بخاطرى ولا بأمرى ابدا ولا برائى وانى لما ارسلت
الى من الشام الرسل اكرمتهم وامرت بنزولهم في دار الضيافة
وفي نيتى ان افعل ما جاؤا به وارد الجواب كما امرتنى فلا قامت الامراء

علان وهم سائرون الى بيت الضيافة فقتلهم فلما بلغني عسر علي
ذلك وكذلك الرسل الذين ارسلتهم جرى في حقهم ما جرى
في حق غيرهم من غير رضاي وكل هذا ليس بأمري ولا بارادتي
وانما جرت بهم المقادير من الرب القدير وحتى تجري الامور على
ذلك على ما كانت من قديم الزمان بان دولتنا زالت وادبرت
ودولتكم جاءت واقبلت وهذا شئ كتبه الله تعالى في القدم
وجرى به القلم ودارت به الافلاك وسارت به الكواكب وما اراده
الله فلا مرد له ولا يغلب الله غالب تبارك وتعالى رب الافلاك
والكواكب ولولا ذلك ما قدرت انت ولا غيرك على اخذ بلادنا
فانه لو كان بالقوة والشجاعة ما كنتم اقوى منا ولا اشجع وها
انتم رأيتم كيف فعلنا مع عسكركم وكسرتهم كذا كذا مرة واما قولكم
انكم كنتم تريدون ان تكون السكة والخطبة باسمكم وان تكونوا
رؤس الملوك بخدمة الحرمين الشريفين فانا والله ما اخذت
السلطنة برغبة مني وانما قومي وعسكري اختاروني ورغبوا
في ان اكون انا السلطان عليهم لما علموا من زهدي في ذلك المال
فلما تقلدت ذلك وجب علي ان اردعنهم وادافع عن اموالهم
وانفسهم واولادهم وحريمهم واما انت فانما قيامك في حظ
نفسك لا غير خصوصا ونحن مسلمون فكيف تستحل قتل المسلمين
وترمي عليهم بهذه المدافع والنيران كيف بك اذا وقفت بين يدي
رب العالمين فما جوابك وكل ملك وان تعاظم ملكه فهو لله عبد
اصغر فما انت وانا الا بمنزلة العبيد فتعجب السلطان سليم ثم قال
له انا ما جئت عليكم الا بفتوى علماء الاعصار والامصار وانا
كنت متوجها الى جهاد الرافضة والفجار فلما بغى اميركم الغوري
وجاء بالعساكر الى حلب واتفق مع الرافضة واختار ان يمشي
الى مملكتي التي هي موروث ابائي واجدادي فلما تحققت ذلك تركت

الرافضة ومشيت اليه ونظر سلطانكم وعسكركم قوتنا وقوتكم
وبعد حضوري الى الشام سمعت انك عملت سلطانا على الكبشة
الاجلاف وانت لست اهلا لها والسلطنة لا تكون ولا تليق الا
برجل يكون اباؤه واجداده سلاطين وانت وقايتباي الذي
شوا عظمكم والغوري ما اسما ابائكم ومن اين لكم السلطنة
ومن اين لكم الامارة كلكم اولاد نصارى وانتم مماليك بلا اعتاق
حتى بغيتم من قلة عقلكم وقلة ادبكم تعملوا الرجل منكم سلطانا
تعزلونه وتقتلونه اي يد لكم حتى تعزلوا وتولوا وتقتلوا
وتطولوا اياديكم على السلاطين فانت وقومك كم قتلت من عسكري
كل مسلم وابن مسلم فما جوابك عنه عند الله تعالى فقال له اعلم
ان الله تعالى قد اجاز لي ذلك قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز
وهو اصدق القائلين فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى
عليكم اللهم ان المرحوم الملك الاشرف قانصوه الغوري وقع بينك
وبينه التنافس ودخلت الشياطين بينكم ورمت الاعادي بينك
وبينه وختم الله تعالى له بالشهادة وستقفان وهو بين
يدي رب العالمين واحكم الحاكمين واما انا فليس بيني وبينك عداوة
ولا احد من عسكرك ولا غيرهم فقال له السلطان سليم والله ما كان
قصدي اذيتك ونويت الرجوع من حلب ولو اطعتني من الاول
وجعلت السكة والخطبة باسمي ما جئت لك ولا دستك رضيت
فقال له طومان باي الانفس التي تربت في العز لا تقبل الذل هل لو ارسلت
لك انا وامرتك ان تكون تحت امري هل كنت ترضى بذلك وهل سمعت
ان الاسد يخضع للذئب لا انتم افرس منا ولا اشجع منا وليس في
عسكرك من يقايسني في حومة الميدان ونحن قوم قد خصنا الله
سبحانه وتعالى بذلك ولكن انا اعرف انه ما عليك اضر من هذين
الشيطانين الخائنين فانه لو كان فيهما خير لكان لنا فقال السلطان سليم

للحاضرين والله مثل هذا الرجل لا يقتل ولكن اخروه في الترسيم
حتى ننظر في امره فأخذه اياس اغا وذهب الى خيمته واجلسه
بها واخذ السلطان سليم يتكلم مع الحاضرين في شأنه واذا
بالبشارة قدجاءت من عند الامير احمد بن بقر بأنه قبض على
شريك الاعور وانكم ترسلون من يأخذه فازداد فرح السلطان
سليم بذلك وقال من يذهب اليه ويأتي به فقال الغزالي على
ذلك فقال له انت لها يا ابا منصور فقام الغزالي من وقته
وخرج واخذ معه مائتين من نقاوة العسكر فما تم النهار الا وهم
في منية غمر فوجدوا الامير احمد بن بقر واقفا لهم في الانتظار
فلما اجتمع بقانبردي الغزالي وسلم عليه قال له احمد بن بقر
انزل الى الضيافة قال لا يمكن ذلك فان السلطان سليما نصره الله
تعالى امرني ان ارجع اليه في يومي هذا فاسرع لنا بشريك وسر
معنا الى السلطان ليكافئك على فعلك ولا تخبرني كيف مسكته
الا ونحن سائرون فعند ذلك احضروه وهو مقيد من ندوقع
بصره على احمد بن بقر وقانبردي الغزالي فقال لهم الله يخون الخائن
فلم يرد له جوابا وركبوه على بغل وقيدوه من تحت بطنه وطاروا
به كما يطير الغراب اذا اخذ البيضة ثم اخذ احمد بن بقر يحكي لقانبردي
كيف قبض عليه فان الامير شريك لما خرج من الغابة بعد ان ايس
من السلطان طومانباي وقصد صديقه وحبيبه الامير احمد
ابن بقر فلما وصل اليه اكرمه وزاد في اكرامه وقال له لا تخف
ولا تحزن حيثما وصلت الى فحكى له الامير شريك على ما حصل
من السلطان طومانباي وكيف سلم نفسه لعدوه ورمى سلاحه
في البحر المالح وان ذلك كان سببا لانقضاء الدولة ثم دخل الليل فنام
الامير شريك ليأخذ لنفسه الراحة وكان له عدة ايام وليالي لم
ينم ولم طرق النوم عينه فنام واطمأن على نفسه فقال احمد بن بقر

لاصحابه خطر عندى شئ اذكره لكم قالوا وما هو قال ان هؤلاء
القوم قد زالت دولتهم حيث ان سلطانهم قد سلم نفسه وانى
اريد ان افعل كما فعل حسن بن مرعى واجعل لى يدا عند السلطان
سليم واخذ السكرانية على غيرى فقالوا له هذا هو الصواب
قال فقمت من ساعتى ودخلت عليه وهو نائم ومعى نحو عشرة
او عشرين نفسا فضربته بالنبوت فى رأسه بعد ان بهته بسرعة
فلما رفع رأسه وهو مدهى من ضربته التى فى رأسه وقد بطحه
امرت بقية الحاضرين فوقعوا عليه وكتفوه وقيدوه وزندته
وارسلت لكم على الفور اعلمكم بذلك فشكره على ذلك قانبردى
الغزالى وقال له الآن قد اشتفى قلبى من هذا الاعور الخبيث ثم انزلوا
مجدين السير به حتى اوقفوه بين يدى السلطان سليم فتأمله ونظره
فوجده من اكمل الرجال وهيبته ظاهرة عليه وشجاعته لابسته
ذو استكانة وهيبة ووقار وضخامة وحشمة فاراد السلطان سليم
ان يختبر كلامه حتى ينظر عقله فقال له السلطان كيف تنظر الدنيا
يا شريك فقال كلا شئ فقال له حيث كانت كلا شئ فكيف تقاتل
عليها وتحارب فيها قال انما قاتلت عليها ولا نافست احدا فيها وانما قاتلت
عن مالى وعيالى وعرضى واولادى وكتاب الله تعالى وسنة رسوله
صلى الله عليه وسلم اجاز لى ذلك فاما الكتاب فقد قال الله
تعالى فى كتابه العزيز فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى
عليكم وقال تعالى اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله
على نصرهم لقدير وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل
دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون عياله فهو شهيد فنحن ما قاتلكم
الا باذن من الله ورسوله وانت باى دليل استحللت دماءنا
واموالنا فقال السلطان سليم اولا قد استفتيت عليكم والجازنى
العلماء بذلك فانه قد بلغنى انكم تقتلون ملوككم وتاخذون الامر بالسيف

ولا تعفون على الحدود الشرعية فقال شربك اما قتل الملوك فانه
كلام باطل فقد اقام المرحوم الملك السلطان الاشرف قايتباى
نحو ثلاثين سنة وهو ملك مصر الى ان مات رحمه الله تعالى
واما ابنه محمد فقد تعدى الحدود ولم يقف على حدود الشرع
ولهذا اقتلناه واما الذين تولوا بعده فاننا لم نر فيهم قابلية للملك
فلهذا اعدمناهم فمنهم من حبسناه ومنهم من قتلناه اتقاء لشره وقد
اخترنا المرحوم الامير قانصوه الغورى وجعلناه سلطانا فاقام
الى ان خرج اليك لامر اراده الله تعالى فى الازل الى ان حصل ما حصل
وآخر الحياة الموت وما نحن باقون من الموت فقد قال الله تعالى
انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون
فلما سمع السلطان سليم ذلك الكلام من شربك اشار بيده ان
اخرجوه فاخرجوه فى الترسيم واقعدوه قال الراوى فى اليوم
الذى جاؤا بالسلطان طومانباى بعد سؤاله وجوابه اليه قبل
ما يعطيه الترسيم اشار اليه بيده ان اطلقوا المدافع والضربزانات
والبنادق ودقت النوبة السلطانية ودقت الكاسات والنقاريات
واطلقوا المدافع والضربزانات والبنادق وكبروا التكبيرات ثلاثة
ايام حتى تزلزلت الارض وضربوا النوبة من الوزير الاعظم وسائر
الوزراء والباشات والامراء وبعد اخرها اشار على تسليم السلطان
طومانباى ثم امر ان ينادى فى جميع مصر بالزينة فزين الناس
جميع مصر والقاهرة وجميع البيوت والدكاكين وامعن الناس
فى ذلك واشيع فى سائر اقليم مصر بان السلطان طومانباى
مسكوه بدلالة حسن بن مرعى وصار الناس منهم من يصدق
ومنهم من الاطراف والفلاحين من يكذب ولما كان فى ليلة
الاحدى والعشرين من شهر ربيع الاول وكان السلطان طومانباى
قد صلى العشاء وجلس وهو كثير التفكر زائد التضجر وزائد الحسرات

متتابع العبرات اخذته سنة من النوم وهو جالس فاذا هو بشخص
واقف قدامه وقال له يا طومانباى قدم نفسك للرحيل فقد
مضى الكثير والقليل وجاء الوقت المعلوم فانتبه من نومك فقد
حصل فراقك من اهلك وقومك فانتبه مرعوبا فزعا وتعوذ
بالله من الشيطان وقرأ ما تيسر من القرآن فنزل عليه من النوم
شئ ثقيل فاضطجع كانه ميت او قتيل قال ولم ينزل عليه من النوم
طول عمره اثقل من تلك الساعة والسبب فى ذلك ان الروح تعلم
بفراقها البدن فتودعه بطيب الوسن ثم افاق بعد ذلك فوجد
نفسه كانه صب عليه ماء من كثرة العرق وكان هو الذى اخبر بذلك
عن نفسه للقاضى اصيل الطويل فانه لم يأت احد من اهل مصر غيره
واوصاه ان يغسله ويكفنه بيده وقد فعل ذلك كما اوصاه
قال الناقل وما زال السلطان طومانباى على سهرته الى الصباح
فلما تباينت الوجوه واذا بالجاووشية قد جاؤا اليه والقليجية
وهم مسرعون وقالوا له قم فان السلطان يطلبك فقام معهم
وساروا به الى ان قربوا من خيمة السلطان سليم واوقفوه واذا بقاجى
اغاسى قد خرج من عند السلطان وقال قد برز امر السلطان بان
تسيروا به الى باب زويلة وتصلبوه هناك وجاؤا له بالبغلة
واركبوه عليها وقيدوه من تحت البغلة ودارت حوله اليكنجرية
والعساكر من سائر الطوائف وخرجوا به من وطاق السلطان
الى انبابه ونزلوه فى مركب وعدوا به الى بولاق ودخلوا به من
مرجوش الى بين القصرين وقد انقلبت الدنيا بالضجيج والبكاء
والصياح وكان الواحد من عسكر الروم يجئ الى الرجل من اهل
مصر ويقول له هذا الذى على البغلة هو السلطان طومانباى
ام غيره فيقول المصرى بل هو هو وكان ذلك اليوم على اهل المملكة
أشئم الايام وبكت عليه الارامل والايتام

ذكر صلب السلطان طومانباى على باب زويلة

قال الراوى فلما وصلوا به الى باب زويلة وجدوا الحبل مرخيا فاسرعوا به ونزلوه عن البغلة وصلبوه من غير مهلة ثم بعد ذلك انزلوه وساروا به فى نعش الى قبة السلطان الغورى فغسله القاضى اصيل الطويل وكفنه من ثياب ارسلها له السلطان سليم من خاص الموصلى الرفيع ثم صلى عليه القاضى ايضا كما اوصاه ودفنوه فى فسقية القبة المذكورة وارسل السلطان سليم ثلاثة اكياس من الفضة تصدقوا بها عليه قال الراوى انه حضر الصلاة على السلطان طومانباى ثم ان الذى فرق الاكياس على الناس فرقها من غير عدد بالتصبيب اعطاه ثلاث حفنات فضة واعطى القاضى اصيلا مثل ذلك وفرق الباقى على الناس من غير عدد بالتصبيب قال ثم ان السلطان سليما فى الساعة التى امر فيها بصلب السلطان طومانباى احضر الامير شربك الاعور وامر بضرب عنقه فقطعوا راسه وجاءت عياله وغلامه للحاج فارس فاستاذنوا فى اخذه فأذن لهم فاخذوه وجاؤا به الى المدرسة البيبرسية وغسلوه وصلوا عليه ودفنوه فى مسجد من داخل الخوخة التى عند الفرن بالقرب من داخل المدرسة المذكورة وكان هذا الخرمدة لجراكسة وهو يوم الاحد الحادى والعشرين من شهر ربيع الاول سنة اثنين وعشرين وتسعمائة قال المؤلف الذى وصل الى علمى من لفظ سيدى محمد بن السلطان الغورى ان السلطان سليما لم يكن فى نيته قتل السلطان طومانباى وانما كان التسبب فى ذلك خيربك نائب حلب وقانبردى الغزالى فانهما لما رأيا السلطان سليما لم يسهل عليه قتله وصرح لهم فى المجلس العام بان مثل هذا لا يقتل الا لما رأى كلامه مسددا وهو حق وصدق وثبت عنده صدقه وظهر له حاله ورأى من شجاعته ما يفوق الوصف فلم يسهل عليه قتله وكان اراد ان

يأخذه معه الى بلاد الروم ويبقيه عنده ذخيرة بعد ان يستحلفه بالايمان المعظمة وثبت عنده دينه وصلاحه وكان رحمة الله عليه محبوبا لكل من يراه فلا يراه غريب ولا قريب الا احبه وشهد له بالصلاح فخشي خيربك على نفسه وكذلك قانبردي ان السلطان سليما ان اخذه معه وصار بينهما اتحاد لا يبقى عليهما فأخذوا يدبرون الحيلة ويحسنون للسلطان سليم قتله وانه متى أبقى عليه لا يقوم له نظام ابدا وربما يفسد عليه عسكره فانه رجل شجاع وكريم الغاية الدنيا عنده لا قيمة لها ابدا وخصوصا للاجناد والعساكر فعند ذلك اقتضى رأى خيربك والغزالى بأن يكتبوا للسلطان ورقة ويرسلوها من غير ان يشعر بها احد من الوزراء ولا من غيرهم ومن جملة ما كتبوا فيها فليعلم مولانا السلطان ان اهل مصر الذين تشتتوا من الجراكسة لم يصدقوا ان سلطانهم عجز وسلم نفسه وقبض عليه وكذلك اهل الاقاليم والعربان وايضا ليعلم مولانا الخنكار انك متى ابقيت عليه فقد ضيعت تعبك وسفرك وهلاك عسكرك واموالك فانه بمجرد ما تسافر من هذه البلاد لو كان تحت الارض خرج منها وافسد عسكرك بالعطاء وتندم حيث لا ينفع الندم فان اردت ان تطيعك الممالك والبلاد وتحتوي على جميع البلاد من غير مانع يمنعك عنها ولا مدافع يدفعك عنها عجل بهلاكه وارسل اصلبه على باب زويلة ليراه الخاص والعام ويشاع ذلك في سائر البلاد وتيأس الناس من بقائه وتروق الدنيا وتطمئن على نفسك وعلى هذا الاقليم العظيم الذى ليس له نظير تحت سماء الدنيا ولقد قال بعض الحكماء عدوك لا تصافيه وصديقك لا تجافيه وقال آخر من لم يحسب العواقب ما الدهر له بصاحب فعند ذلك امر السلطان سليم بصلب طومانباى ورمى عنق شربك كما تقدم *

ذكر صفة السلطان طومانباى رحمه الله تعالى

كان رحمة الله عليه على ما حكاه عنه سيدى محمد بن المرحوم الغورى والقاضى اصيل الطويل والامير زمك الناشف وغيرهم ممن رآه وعاشره وعرفه ظاهرا وباطنا فاتفق الجميع على انه كان مقداما خبيرا بالحروب ومواقع الطعن والضرب والدخول فى الميدان والخروج منه لا يرهب الاقبال ولا يخطر الموت له على بال وقد ذكرنا ذلك فى حروبه ووقائعه وكان متوسط الطول ذهبى اللون واسع الجبين اسود العين والحاجبين واللحية وكان دينا صالحا خيرا فاضلا زائد الادب والسكون والخشوع والخضوع ملازما لزيارة المشايخ الاحياء منهم والاموات حتى انه لما غسله الغاسل وقلعه ما عليه من الثياب وجدوا على بدنه جبة صوف حمراء واوصى ان يدفنوه بها ولم يظهر عنه فى حياته شئ من الافعال الردية ابدا لا شرب خمر ولا زنا ولا فواحش ابدا وكان قليل الشهوة لا يظهر شيأ مما يفعله اهل التجبر والعنف وكان الغالب على حاله السكينة والوقار وكان غالبا على نفسه رزينا فى احواله لين الكلمة ذا انخفاض كثير الرحمة والشفقة على كل احد حتى انه لما ظهرت منه هذه الفراسة والشجاعة فى قتال السلطان سليم صارت الناس يتعجبون منه غاية العجب ولا كان احد يظن انه بهذه الصفة وكان الذى عمره ما رآه اذا رآه لا يشك فى انه عبد صالح فان الصلاح والانس والخيرية كانت ظاهرة عليه وعلى وجهه وقد تقدم فى التاريخ ان السلطان سليما ما هان عليه قتله لما رآه وسمع كلامه وقال له والله يا طومانباى لو كنت اطعتنى على مرادى بان تجعل السكة والخطبة باسمى ما دخلت لك ارضا ولا بلادا ولا وقع بينى وبينك حرب ابدا ولكن لكل شئ سبب حتى جرى القضاء والقدر وقتل من قتل وسلم من سلم وكانت زوجته خوند

بنت قانبردى الغزالى دويدار كبير وتزوجت بعده برجل يقال
له ابن الشيخ ابراهيم الكلشنى وبقيت بمصر الى ان ماتت ولم
يخلف السلطان طومانباى اولاد الاذكورا ولا اناثا واكثرت
فيه الشعراء من المراثى والقصائد ومضى كأنه لم يكن وكان لقاضى
اصيل الطويل دائما يحكى عنه حكايات غريبه وامور عجيبه
تشهد له بأنه من عباد الله الصالحين ومات القاضى اصيل فى
سنة سبعين وتسعمائة قال الراوى قد قدمنا فى هذا التاريخ
ان السلطان طومانباى تولى فى يوم الاحد الخامس عشر من شهر رمضان
سنة تسعمائة واحدى وعشرين وانقطع اسمه من الخطبة على
منابر مصر فى اول سنة اثنين وعشرين وتسعمائة وكان من
حين ضربت له السكة واقيمت له الخطبة ثلاثة اشهر وخمسة
ايام قال المؤرخ وفى الساعة التى امر السلطان سليم فيها بصلب
طومانباى وقتل الامير شهيك احضر فيها شيخ العرب حسن بن
مرعى وابن عمه شكر او شيخ العرب احمد بن بقر وخلع عليهم خلعا
عظاما من اجل خلع الملوك واعطى لكل واحد منهم ولاية بلاده
اقطاعا له لايحمل من مالها لديوان السلطان شيئا ولاولادهم واحفادهم
ما داموا فى قيد الحياة وارسلهم الى بلادهم بعد ان احسن اليهم
احسانا جزيلا واكرمهم اكراما عظيما

ذكر تولية الكشاف ومشايخ العربان

قال الراوى ثم امر السلطان بتولية الكشاف فولى الامير جانم على
البهنسا والفيوم وجانم هذا هو الذى تحارب مع السلطان
طومانباى وولاهم على ما كانوا عليه فى مناصبهم وامران يكتب
فى الدواوين ولجميع الحكام بعدم المعارضة لجميع اصحاب
الاقطاعات والارزاق والاوقاف والجوامع واولاد الامراء واولاد
الجراكسة الذين تخلفوا وكل من بيده شئ من الارزاق هو باق عليه

وجعل لعنة الله ثلاث كرات على من غير او بدل شيئاً من ذلك
ففرح الناس بذلك غاية الفرح ثم ان السلطان قال للامير
خيربك اريد ان اعلم قدر مال مصر وما يجمع منها في كل سنة قال
يا مولانا الخنكار ما يعلم ذلك ولا يعرفه الا القاضي ابو بكر بن
الجيعان فامر باحضاره فلما حضر قال له خيربك مولانا السلطان
يريد ان تخبره بما يجمد من مال مصر في كل سنة على وجه الخصوص
فقال له القاضي في غد ان شاء الله تعالى آتيه بخبر ذلك ثم انصرف
ورفع الدفاتر التي قد كان جاء بها وجاء في ثاني يوم وقد كتب بجملة
خراج مصر على ظفره فاعجب السلطان ذلك وقال له بارك الله فيك
خير القول ما قل ودل ثم ان السلطان امر بالرحيل من برانبابه وجاء
الى المقياس ونزل فيه ومعه جميع اكابر دولته واعيان اجناده
ثم ان السلطان خلع على شيخ العرب حماد بن خبير شيخ عرب غزالة
باقليم الجيزة وجاء اليه الامير علي بن عمر شيخ هوارة فخلع عليه
بامرية الصعيد بمدينة جرجا وخلع على علم الدين شيخ بني عدي
وكتب لهم التواقيع بذلك وخلع عليهم وانصرفوا قال المؤرخ
ومن غريب ما جرى ان الامير قانصوه العادلي لما سمع بشنق
السلطان طومانباي وقتل الامير شربك كان عليه ذلك اليوم
من اشنع الايام وهجر الطعام والمنام ثم انه حدث نفسه بان يتحيل
بحيلة على قتل السلطان سليم فسهر ذات ليلة وهو متفكر فيما يفعله
وكيف يتوصل الى ما اراد فدبر في نفسه ان يلبس مثل العرب
ويأخذ معه جماعة من اهل القوة وينزل الى مركب ليلا ويسير
بها الى تحت المقياس ويجعل له سلم تسليم ويصعد عليه وينزل
الى داخل المقياس ويقتل السلطان سليما او يأخذ بثار قومه وما
علم ان الحي ما له قاتل ثم انه فعل ذلك حتى وصل الى الطيارة التي
فوق المقياس وهي محل السلطان فوجد الحرس مستيقظين وسمع

حديثهم فكمن في محل وقال في نفسه اصبر لهم الى ان يناموا فلما
سكت حسهم ظن انهم قد ناموا وكانوا يتناوبون الحرس بالساعة
فقام ومشى الى ان قرب منهم ففطنوا به ورأوه بالعين فقاموا
اليه يتصايحون بالسيوف مسرعين فى طلبه فرجع هاربا الى
الموضع الذى جاء منه وفيه سلم التسليم فما ساعة الا ان رمى
نفسه من فوق الشراريف الى البحر وانحى فى التيار وتبعته
جماعته بالقارب فحصلوه وهو عائم فاطلعوه واخذروا به
ولم يبلغ مقصوده واما السلطان سليم فانه قام مرعوبا من نومه
لما سمع الضجة وطل من اعلى القصر ونظره وهو عائم فى الماء
فامرهم بالرمى عليه بالبندق فلم يصبه شئ من ذلك الى ان
وصل الى ساحل بولاق وبقى مقهورا لانه لم يبلغ مقصوده
وكان فى علم الله ان الذى بقى من عمر السلطان سليم ثلاث سنوات
فانه مات بالقسطنطينية فى سنة ست وعشرين وتسعمائة ودفن
بها ومن الغرائب ان مدفنه لا يذهب اليه احد ولا يزوره الا النادر
فانه كان سفاكا للدماء لا يتوقف فى قتل احد واما تربة والده
المرحوم السلطان ابايزيد فانها شهيرة عامرة موصلة للناس لا ينقطعون
عنه الا ان كان بعد صلاة العشاء فانه كان عبدا صالحا لا يشك
فى ولايته وكان بينه وبين المرحوم السلطان قايتباى مودة
عظيمة ويهادون بعضهم بعضا فى كل عام ويرسلون لبعضهم
السلام ويطلبون من بعضهم الدعاء الى ان توفاهم الله تعالى
تغمدهم الله برحمته ورضوانه واعجب من ذلك ان خيربك
ملك الامراء بمصر لما اقامه السلطان سليم على ملك مصر الى ان
يموت فامر بعمل تربة لنفسه وجعلها فى باب الوزير على طريق
القلعة يمر عليها الباشات والصناجق والاغوات عند ذهابهم
وايابهم فلم يلتفت اليه منهم احد ولا يترحم عليه ولا يقرا له الفاتحة

مع انها نزهة مليحة المنظر ومع ذلك صد الله عنه قلوب الخلق لانه
كان سببا في هلاك الوف مؤلفة من الجراكسة والاروام والعرب
وغيرهم فان بعض الحذاق من المؤرخين قاسوا وقعة الجراكسة
مع السلطان سليم على وقعة تيمورلنك الذى اخرب حلب والشام
وقتل اهلها وعساكرها فوجدوها قدرها خمسة عشر كرة تقريبا
قال المؤرخ ثم ان السلطان سليما اشتهى خاطره ان يذهب الى
الاسكندرية ويتفرج عليها ويحيط بها علما فخرج في خمسمائة نفس
من اخصاء عسكره وانحدر في البحر فراى مدينة فوة ورشيد
وغيرهما من البلاد وراى تلك الارزاق وراى الخيرات التى كانت
في ايام الجراكسة فتعجب من ذلك وقال ان هذا الاقليم لا نظير له
في كثرة الارزاق والخيرات ثم انحدر الى رشيد واحاط بها علما
ثم طلع في البر الى الاسكندرية واقام بها ثلاثة ايام ثم رجع
ونزل في المقياس وبقى كل ليلة ينزل في الذهبية التى عمرها السلطان
قانصوه الغورى وكانت كلها منقوشة بماء الذهب كالاسقفة
التى في الغورية وكانت لها بهجة عظيمة وكان الحاج عبد القادر
الاعرج هو الريس الذى يمسك الدفة ويقلع به ويحدر فاتفق
انه في بعض الليالى اراد السلطان الطلوع من الذهبية الى
المقياس فلما قاربت الذهبية سلالم المقياس هم السلطان ان
يطلع فلم تصل رجله الى درج المقياس وكاد ان يسقط بين
الدرج والذهبية والحاج عبد القادر واقف بحذائه ليطلعه
فلما رآه هوى الى البحر وكان بيلاحقه بر فما حصل الا عنقه فامسكه
وجذبه الى الذهبية من الماء فساعده عم السلطان فاطلعه الى
المركب وقد غاب صوابه وايقن بالغرق فلما ردت اليه روحه
قال له تمن على يا عبد القادر فقال تمنيت ان اكون معرف
البحرين فكتب له السلطان ان يأكلها الى الممات من غير ان يحمل منها

الى الديوان شيء مطلقا وان يكون مسموع الكلمة منقام الحرمة
الى ان يموت واعطاه عطايا الملوك ولما اصبح السلطان أمر
بالرحيل من المقياس فانزله خيربك في بيت ابيه الذي على بركة
الفيل فانه ليس له نظير في حسن بنائه ومنظره فاقام بها اياما
ثم امر بالرحيل الى القسطنطينية وكان من امراء الصناجق امير
سكن في قناطر السباع فهجم عليه طائفة من الينكجرية فقتلوه
فوصل خبره الى السلطان فقبض عليهم وقتلوهم عن اخرهم وكانوا
نحو العشرين رجلا ثم ان السلطان سليما قبل الرحيل بيوم خلع على
خيربك بنيابة مصر ولقبه ملك الامراء وابقى عنده خمسة الاف
ينكجريا ما عدى العسكر الخيالة وقال له اعطيتك هذه المملكة
اقطاعا لك الى ان تموت وكذلك فعل بقانبردى الغزالى فأعطاه
الشام اقطاعا له الى ان يموت ثم ان السلطان امر خيربك بأن كل
من جاءه من الجراكسة الهاربين وطلب منه الامان يقبله ويبقيه
على منصبه واوصاه واكد عليه في ضبط البلاد والانصاف بين
العباد ثم ان السلطان انصرف وامر بالسفر فلما سمعت الجراكسة
بذلك اطمأنت قلوبهم فجاء الامير زملك الناشف والامير يدبك
وسيدي على بن سودون الدوادارى وغيرهم ممن كانوا هاربين
مختفين وطلبوا الامان من خيربك فأمنهم واستقل خيربك بملك
مصر يتصرف فيها تصرف الملوك واما سيدي محمد بن الغورى فانه
اخذه السلطان سليم معه الى بلاد الروم وكذلك الامير قانصوه
العادلى فان السلطان سليما لما ان جاء له قانصوه العادلى في
المركب وطلع من على شراريف المقياس يريد ان يقتل السلطان
سليما كما تقدم وقد كان السلطان ارسل خلف خيربك وقال
له لا بد وان تأتيني بخبر هذا الرجل الذي خاطر بنفسه وجاء في
في الليل ليقتلني فاستقصى خيربك الخبر فقيل له هذا هو الامير

قانصوه العادلي فلما اخبر السلطان به قال له لابد وان تأتيني
به فقال له يبرز امرك بالامان فلعل ان يطيع ويدخل في يدنا
فحلف السلطان ايمانا مغلظة انه ان قابله بالامان فعليه امان
الله ورسوله والغائن يخونه الله تعالى فارسل له خيربك من
استعطف بخاطره وقال له ان السلطان قد ندم على ما فعل من قتل
طومانباي وشربك وما كان قصد السلطان شيئا من ذلك وانما
عنادهم هو الذي اوجب ذلك فانهم لو اطاعوه من الاول وجعلوا
السكة والخطبة باسمه لكف عنهم ورجع الى بلاده وابقاهم
على بلادهم ولكن جرى القلم بما به الاله حكم وقد تم الامر وما بقى
لا شر ولا خير والاولى والاحسن ان تقابل السلطان وتامن على
نفسك ومالك وعيالك فلما سمع الامير قانصوه العادلي ذلك
الكلام طاب خاطره للمقابلة وقال في نفسه اما الموت فلا بد منه
ومن لم يمت بالسيف مات بغيره فتوكل على الله تعالى وسلم امره لله
وقدم على خيربك ليلا فلما اجتمع به خيربك تلقاه بأحسن ملتقى
وقال له ما بقي كلام وقد مضى ما مضى وتكلم معه كلاما كثيرا وضمن
له من السلطان الامان واعلمه بأن السلطان لا يخالف خيربك في
شئ من ذلك فانه كان يعتقد محبته له ولما طلع النهار ركب خيربك
وقانصوه العادلي وذهبا الى السلطان سليم فلما وقف بين
يديه نظر اليه وتأمله وقال له ما اسمك فقال له اسمى قانصوه
العادلي فقال انت الذي جئتني في الليل وأنا في المقياس قال نعم
قال صف لي كيف صنعت فوصف له جميع ما صنعه فقال له
السلطان لاي شئ فعلت ذلك قال له قانصوه العادلي اما تدري
ما صنعت انت وما فعلت في سلطاننا وما اهلكت من عساكرنا وما
اخربت من ديارنا وما يتمت من اطفالنا وما هتكت من حريمنا وما
اخذت من اموالنا وما فعلت معنا من فعل لم يفعله احد من قبلك

ونحن

ونحن مسلمون مؤمنون موحدون نحماة الدين ونقرأ كلام رب
العالمين سنيون ستويون فما ذنبنا قال له السلطان سليم
يا قانصوه والله ما كان هذا فى خاطرى من الاول ولا كان قصدك
شيأ من ذلك ابداً الا ان ملككم الذى هو قانصوه الغورى لما
ارسلت له وكاتبته وانا ذاهب الى قتال قزلباش الرافضى ارسل
لى جوابا ناقصا واغلظ فيه على ثم ارسلت له ثانيا لما ان بلغنى
منه ما كان يفعله بالناس من المضارات والقتل فى الامراء
والاعيان فقلت له كف عن ذلك وانصف الناس من بعضهم
فان كل من كان خادما للحرمين الشريفين لا يكون الا عادلا منصفا
عاملا بالكتاب والسنة متمسكا بالشريعة فارسل لى جوابا بانه
قادم باشراره فتوجهت اليه وجردت عليه وقد نصرنى الله
تعالى عليه ورمى كيده فى نحره وانظر كيف لقى الله تعالى فكم
الفتنة كيف كنتم تخونون بعضكم وتفسدون فكان ذلك سببا
لزوال ملككم ولكن هذا ليس هو بقدرتى ولا بقدرتكم ولكن
هذا بتقدير الله تعالى وقد تم الامر على ذلك ولكن يا قانصوه
قد عطف الله قلبى عليك وقد امنتك على نفسك ومالك وعيالك
ولا بقى يحصل لك منى اذية ابدا فقبل الارض ودعى للسلطان
واعتذر له بانه ما جاله فى تلك الليلة الا لشدة ما حصل له من
القهر فيما تقدم ثم ان السلطان خيره فى ان يقيم فى مصر معززا
مكرما او يذهب معه الى بلاده فاختار الذهاب معه محبة
فى ابن استاذه سيدى محمد بن الغورى فأخذه السلطان سليم
معه وامر عسكره باكرامه وبقى السلطان فى كل يوم يطلبه
ويتحدث معه فى الطريق ويتعجبه كلامه وفصاحته واجوبته
ومعرفته وفضله وشجاعته وكان السلطان سليم فى كل حين
يامره بان يلعب بين يديه بالرمح والسيف وانداب الحرب فيعجبه

ذلك وكان يقول لعسكره انظروا اهل فيكم من احد يعرف يعمل
شيأ من ذلك فقامت نفس يونس باشا الذى هو الوزير الاعظم
فأغلظ فى الكلام على السلطان وقال له من بعض قوله ما الذى
فعلته اخذت البلاد من الجراكسة ثم اعطيتها لهم ثانيا وعاديتهم
وقتلتهم ثم صافيتهم فما هذا الرأى فلو عرفنا ذلك ما جئنا
معك ولا اطعناك فى شئ من ذلك فقامت نفس السلطان من
هذا الكلام فأمر بضرب عنقه فى الوقت وقتل غالب خصمانه
تبعا له ثم هرب ابن يونس باشا وبعض جماعته الى مصر فقبض
عليهم خيربك ثم ارسلهم الى السلطان سليم فقتل الجميع ولما
وصل الى دمشق خلع على قانبردى الغزالى واعطاه الشام اقطاعا
الى ان يموت لا يؤخذ منه من مالها ولا الدرهم الواحد ثم سار
الى القسطنطينية وامر بالزينة فامعنت اهل بلاد الروم فى
ذلك فأقام بها الى سنة ست وعشرين وتسعمائة ودفن فى
مدفنه الذى كان عمره فى حال حياته بمدينة القسطنطينية
وكانت وفاته فى سادس شوال فكانت مدة سلطنته ثمانى
سنين وثمانية اشهر وتسعة ايام ثم آل الملك لولده السلطان
سليمان وكان من الملوك العادلة رحمة الله عليه ومكث فى الملك
نحو ثمانية واربعين سنة وشهور لا يختل له نظام ابدا وكان
ملكا كريما عادلا فاضلا ذا هيبة ووقار

ذكر خروج الغزالى نائب الشام وسلطنته بها

قال فلما بلغ قانبردى الغزالى موت السلطان سليم وقد تولى
ابنه السلطان سليمان وهو شاب صغير طمعت نفسه الخبيثة فى
ان يتسلطن فى الشام ويعيد الملك الى الجراكسة كما كان فى الاول
ويكون هو السلطان وتعلقت اماله بالمحال فأخبر خصماءه بما فى
نفسه فقالوا له ليس لنا قدرة على ذلك ونحن فئة قليلة ولكن

ارسل الى خيربك صاحب مصر اعلمه بذلك فان وافقك على ان تفعل ما قلته فافعل والا فلا قدرة لك على عسكر الروم وكثرتهم ونيرانهم فهل نسيت ما تقدم فقال لهم انما كان ذلك من السلطان سليم وانما هذا ولد ليس له قدرة على فعل شئ من ذلك ولا اظنه يتم سنة فى الملك وما علم انه يقيم فى الملك ما يقرب من خمسين عاما ثم ارسل اعلم خيربك بما فى ضميره فارسل له خيربك جوابا يحذره انه لا يفعل شيأ من ذلك ويقول له اما رضيك اقليم الشام تتصرف فيه تصرف الملوك فاياك ثم اياك ان تتفوه بشئ من ذلك فلم يقبل من خيربك وسولت له نفسه الخبيثة بأن يتسلطن وارسل الى خيربك ثانيا يقول له ان لم تطعنى على ذلك والا جردت عليك وحاربتك اما بى واما بك فلما رأى خيربك منه الجد ارسل يخادعه فى الكلام ويقول له ان كان ولا بد وانت معول على ذلك اذهب الى حلب وخذها فان ملكتها فانا مساعدك فيما تقدم وموافقك على ما تقول ولما جاء الجواب له بذلك فرح به وارسل خلف سيدى محمد بن الامير قرقماس وقال له انظر كتابة الامير خيربك ملك الامراء الذى تقول انه لا يوافق على شئ من ذلك فقال له سيدى محمد والله انى لم اصدق شيأ من ذلك وانما خادعك بهذا الكلام لما رأى منك الجد ولكن ان قبلت رأيى ازل هذا الامر عن بالك واقعد فى حالك فقال له الغزالى الذى ظهر لى منك انك رجل ابن ناس ونزيزة مزيه فى الدلال اقعد لى انت فى الشام واحفظ لى البلد الى ان ارجع اليك وتنظر الرجال فقال له ها انا قاعد لك هنا واذهب حتى انظر كيف تصنع وما اخوفنى عليك ثم ان الغزالى جرد على مدينة حلب ونفق له عساكر من كل جنس من عرب ومن جركس ومن كرد ومن دروز

ومن سفل العالم وممن لاخير فيه وخرج من دمشق في ضجة
عظيمة من شرار الناس وممن لا يرتجى خيره ولما وصلت الاخبار
الى نائب حلب وكان اميرا من صناجق السلطان سليم ورأى ما
لا قدرة له على تلك الجموع فما ساعه الا ان كتب بذلك كتابا
وارسله مع عشرة جاوشية الى السلطان سليمان بان يرسل
له عسكرا يرد الغزالي والا اخذت حلب من يدى وها انا
محاصر الى ان يريد الله بامر يريده فعند ذلك امر السلطان سليمان
اياس باشا الذى كان اغاة اليكنجرية مع السلطان سليم لما أخذ
مصر من الجراكسة وايضا له معرفة تامة بالغزالي وخيربك
من ذلك العهد فخرج من مدينة اسلانبول قاصدا الى مدينة
حلب واخذ خمسة الاف من اليكنجرية وعشرة الاف من الاسباهية
ومن الضربزانات والات الحرب شيئا يفوق الوصف هذا ما
كان من امر اياس باشا واما الغزالي فانه كان قبل خروجه من
دمشق الشام منع الدعاء للسلطان سليمان في الخطبة وامر
بالدعاء له وايضا جعل السكة باسمه وتسلطن واطاعته
العساكر واهل الشام وخطب له على منابرها وامر بالزينة
فزينت له زينة لم يعهد مثلها مدة سبعة ايام ثم امر بالتبريز
الى مدينة حلب كما تقدم ولما وصل اليها وجد ابوابها قد قفلت
وطلعت الناس على سورها فلما قرب منها رموا عليه بالمدافع
والاحجار فامر بالاقامة لاجل ان يحاصرها فمكث ثلاثة اشهر
ولم يقدر على اخذها فدخل عليه الشتاء واشتد البرد فما ساعه
الا الرحيل عنها ونوى انه ان جاء الصيف يرجع اليها ولا يرجع
حتى يأخذها طيبة او غصيبة ثم امر بالرحيل فاخذ عساكر
حلب واهلها في شتمه وسبه ولعنه وهو يسمعهم ويسمع
كلامهم وصياحهم وضحكهم عليه فرجع مخزيا مشتوما مطرودا

فلما وصل الى دمشق تفرقت تلك الجموع الى بلادهم وقد دخل
عليهم الشتاء وقاسوا من البرد والمطر ما لا يوصف واما الغزالي
فانه ضاق صدره وجاءته الاخبار بان باشت حلب قد كاتب
السلطان سليمان واخبره بما فعلت وان عساكر الروم قد تممت
عليك مع اياس اغا وما هم منتظرون الا ذهاب الشتاء ودخول
الصيف ويأتون اليك في عسكر يسد الارض فانظر كيف
تصنع فان امكنك الهروب فاهرب وكان المرسل له هذا الخبر
رجلا من اصحابه من اهل حلب وسفه رأيه فعند ذلك اضطرب
حال الغزالي وندم على ما فعل حيث لم ينفعه الندم وكتم ذلك
في سره وبقي حيران في نفسه كيف يصنع ان هرب ما يسهل
عليه ترك البلاد وان اقام لا قدرة له على ملاقاة الروم وقد
تشتتت منه تلك الجموع التي كان جمعها وذهبت الى بلادها
وايضا انه كان قبل ذلك لما ان اراد ان يتسلطن دبر حيلة
وطلعت بيده وهو انه امر بعمل مولد وباشر في عمله وامر
بان يحضر جميع عسكر دمشق الذين كانوا مع السلطان سليم
وابقاهم في دمشق مع قانبردى الغزالي من الصناجق والاغوات
واليكنجرية وغيرهم فلما اجتمعوا عنده مد لهم سماطا طويلا
لم يعمل مثله احد وجلست الاعيان في اعلى السماط ثم من دونهم
بالترتيب الى اخر السماط فالتهوا في الاكل وكانت مماليكه واتباعه
واقفين خلف الذين يأكلون على السماط وكل واحد منهم سيفه
تحت ثيابه وهم يتعاطون الخدمة فعند ذلك اشار لهم فحطوا
ايديهم في الاروام الذين على السماط فما شعروا الا ورؤسهم
طائرة فوقعت رؤسهم في الطعام فلم ينج منهم احد فقتلوهم
اجمعين وصار الطعام كله رؤسا وتلف الطعام من كثرة
الدماء والقتلى فامر باخراجهم ورميهم خارج دمشق فاكلتهم

الذئاب والحداة والغربان ولما فعل ذلك صفت له دمشق
ولم يبق عنده من يعارضه فيما يفعله فعند ذلك تسلطن
كما تقدم ولازال في هم وغم حتى فرغ الشتاء ودفئت الدنيا
فجاءته الاخبار بأن اياس باشا قادم عليك في عساكر لا تحصى
فازداد غما الى غمه وامر بالخروج الى ملاقاة العساكر وقال
اما يجنى واما يجنهم ولكنه ندم على ما فعل غاية الندم حيث
لا ينفعه الندم وذلك من الحمق فان الاحمق يسعى في هلاك
نفسه وهو لا يشعر واما اياس باشا فانه لما وصل الى حلب
خرج اليه نائب حلب وقابله واخبره بما فعل من قفل ابواب
البلد وانه رمى على الغزالي من اعلى الصور وانه اقام محاصرا
لهم ثلاثة اشهر ثم دخل عليه الشتاء فرجع الى دمشق وذكر
له جميع ما وقع فشكره اياس باشا على ما فعل وخلع عليه وعلى
اغاة اليكنجرية الذين كانوا بحلب ثم قصد دمشق والتم عليه
عساكر كثيرة لا تحصى فانه بقى كلما دخل مدينة اخذ منها جماعة
فصار في جيش عظيم فلما وصل الى ظاهر دمشق ارسل جاويشا
بكتاب الى قانبردى الغزالي بان يتاهب للحرب والقتال والطعن
والنزال وينظر ما تفعله الابطال واخذ يوبخه ويحط عليه
في ذلك ومن جملة ما قال له فيه انه لو كان فيك خير كانت
لابناء جنسك فالذى ما فيه خير لجنسه كيف يكون فيه خير
لغير جنسه يا خائن يا فاجر يا غدار يا مكار واخذ يسبه سبا
مبرحا ويسود وجهه ويلعنه ويقول له انما هذه نيتك الخبيثة
انقلبت عليك فسوف ترى صنع الله في غد ان شاء الله تعالى
فلما وصل ذلك الكتاب للغزالي وقراه ازداد غما على غمه وضاق
صدره ولم ينم تلك الليلة ولا طرق النوم جفنه وحسن زوال
النعمة عنه ولم تبق له حيلة يحتال بها ابدا فما ساعه الا ان

تأهب للقتال اما له واما عليه وقد تحقق انه لا خلاص له من ذلك وانه قد خسر خسرانا مبينا ولكنه لم يظهر شيئا من ذلك لاحد من خلق الله تعالى وكتم ما عنده ولما طلع النهار امر باقامة الحرب وقد صفت عساكره ودق طبله ووقف بنفسه يرتب الميمنة والميسرة فلما تم ذلك واذا بعساكر الروم قد اقبلت صفوفا صفوفا ووقف اياس باشا والتحم القتال فامر اياس باشا الرماة انهم لا يرمون حتى يأذن لهم في الرمي فحطم الغزالي على عسكر الروم حطمة واحدة فشتتهم بها وعزقهم كل ممزق وصار يقاتل قتال من ايس من الحياة فقتل من الروم مقتلة عظيمة فلما عاين اياس باشا ذلك امر الرماة بأن ترمي بالبندق والمدافع والضربزانات فما شعر الغزالي الا والدنيا قد انقلبت والقيامة قد قامت وانطبق الجو من الدخان والغبار فما كان الا ساعة واحدة وقد ذهبت تلك العساكر والجموع وما سلم منهم الا طويل العمر وبقي الغزالي واقفا لا يعرف كيف يصنع ولا اين يذهب فالتفت فوجد صنجقه واقفا ليس عنده احد فجاء الى حامل الصنجق وكان شابا شجاعا اسمه علي بالي رباه الغزالي عنده من صغره ولكنه ليس جركسيا فلما راه الغزالي شجاعا قربه اليه حتى جعله حاملا لوائه وكان يصرح ويقول ان عليا هذا عندي اعز من ولدي فلما راه واقفا والصنجق بيده قال له يا ولدي الى متى انت تقف وعساكرنا كلهم هلكوا وتشتتوا قال له والى اين اذهب وحق قبل روحك لا فارقتك حتى تذهب روحي فشكره الغزالي على ذلك وقال له يا ولدي ما بقي لنا غير الفرار من هذا العسكر الجرار فقال له والله يا سيدي ما عملت فينا خيرا وما ضرك لو كنت باقيا على ما انت عليه امنا على نفسك وانت كنت سلطانا مخفيا سعيت في هلاك نفسك واهلكتنا

فى جوتك قال ماكنت اظن ان الامر كذلك وان العساكر تفر منى
وينقلب الامر فقال له على ان العارفين قالوا من لم يحسب العواقب
ما الدهر له بصاحب فقال يا ولدى مادام هذا الدخان
والغبار قائما اقلع هذا الصنجق من على رمحه وضعه فى مخلاتك
وارم الرمح وادفن المخلاة فى هذا الكوم العالى ودعنا ننزل
عن خيلنا ونقلع لبسنا ونغير حالتنا وننجوا بانفسنا فاذا
رأونا لا يعرفونا ثم ان الغزالى نزل عن فرسه وخلع ما عليه
من اللبس والبولاد الذى لا نظير له ودفنه فى التراب وبقى بطاق
القميص ورأسه مكشوفة كانه فرندلى اذا رآه من يعرفه لا يعرفه
ولبط وجهه بالتراب وصار كانه كان مدفونا فى التراب
وطلع واما على بالى فلما رأى ذلك قال له والله يا سيدى ليس
عندك من الرأى شئ فاننا لو كنا على ظهور خيلنا كان هربنا وحمينا
انفسنا حتى نخلص من محل الحرب ثم ننزل على بعد ونختفى فى
مكان لا يعرفنا احد واما نزولنا فى محل المعركة فلا فائدة فيه ثم
ان على ركب فرسه ثانيا واخذ عدته وهم بالهروب فقال له
الغزالى هكذا يا على تذهب وتخلينى للعدو فقال له وما الذى
اصنع انا قلت لك افعل بنا هذه الفعال القبيحة التى لا يفعلها
المجانين فبينما هم فى هذه الحالة الا وقد انجلى الدخان يسيرا
ونظر الناس بعضهم بعضا واذا بمنادى اياس باشا ينادى كل
من جاءنا بالغزالى او برأسه او دلنا عليه او على مكانه اعطيناه
جميع ما يتمناه فدكس على بفرسه الى نحو الميدان واذا بهم
طائفة من السلحدارية واليكنجرية فلما وصل اليهم قال لهم انا
ادلكم على موضعه فقالوا له اين هو فقال لهم انا اعرف محله
وهو بالقرب منكم ولكن ما ادلكم عليه حتى تعاهدونى على ما اريد
قالوا له لك ذلك قال اريد ان اكون امير صنجق فانى انا الذى

حامل صنجقه وأنا من اولاد الشام ونحن طائعون للسلطان
سليم باطنا وكذلك سيدى محمد بن قرقماش فقال له الاغا
لك منا جميع ما تريد ان دللتنا عليه فقال له اتبعونى وقصدوا
نحو الغزالى وهو واقف يبرم كما تبرم القرندلية وهو يقول
هو هو وقصده بذلك حيلة منه لئلا يعرفوه فقال لهم على هو
هذا القرندلى فهو الغزالى فقالوا له انت تتمسخر بنا يا فاعل يا تارك
واخذوا يشتمونه ويسبونه وهموا بقتله فقال لهم امهلوا على أنا
بين ايديكم ان لم يكن هو الغزالى والا فرأسى عوض كلامى فقالوا
له ان الغزالى كان بالة الحرب من الحديد قال نعم وحكى لهم ما فعل
فجاؤا اليه واحاطوا به ومسكوه وهو يهدر كالمجذوب ويقول هو
هو فقالوا له انت الغزالى فقال لهم بعد ان قبضوا عليه وارادوا
قتله انا رجل درويش عريان ومن اين لى ان اكون كالغزالى فتحيروا
فى امره وعلى بالى يحلف ويقول لا تصدقوه ولكن تعالوا انا ادلكم على
لبسه وفرسه وسلاحه انهم على ذلك الكوم العالى فاخذهم ودلهم
اليه واذا بملبوسه كله وصنجقه مدفونان فى التراب فطلعوا
وراوه فعرفوه وراوا فرسه واقفا عند ذلك المكان وهو ينكر
ويقول انا رجل درويش كيف تصدقوا هذا الكذاب انظروا الى
حالى فلما تحيروا فى امره قال لهم على انا اقطع راسه واذهب بها الى
اياس باشا فانه يعرفه فاذا لم يكن هو والا فرأسى عوض عن رأسه
وجذب سيفه وضرب رأسه اطاحها واخذها فى مخلاته وقال
انا وانتم الى اياس باشا واخذوا معهم ملبوسه وفرسه فلما وقفوا
بين يدى اياس باشا تقدم ذلك الاغا واخبر اياس باشا بما وقع
فقال لهم هاتوا الرأس حتى انظرها فانى اعرفه غاية المعرفة فوضعوها
بين يديه فتاملها وقال هذه رأس الغزالى بلا شك ثم قال لهم اين الذى دلكم
عليه فقالوا له هذا الرجل فسأله عن حاله فاخبره بجميع ما فعل الغزالى فعند ذلك

خلع عليه خلعة عظيمة وعمله امير صنجق وكذلك سيدي محمد بن قرقماس ومن
اغرب ما وقع ان في يوم قتل الغزالي وقف رجل على باب الجامع الازهر
ونادي باعلى صوته يا جماعة ان الغزالي قتل في اليوم فاذا لم تصدقوا فاكتبوا تاريخ
هذا اليوم فكان كما قال ذكر تاريخ قطع راس الغزالي الخائن
فما مضى الا ايام قليلة حتى جاءت الاولاقية من عند اياس باشا الى
خيربك ملك مصر بما وقع وان الغزالي قطعت رأسه في اليوم الفلاني
وكان العاشر من ذي الحجة الحرام سنة سبع وعشرين وتسعمائة
ثم ان اياس باشا ارسل براس الغزالي الى السلطان سليمان مع الاولاقية
فزينت البلاد وحصل السرور للسلطان ثم ارسل السلطان الجواب
لاياس باشا وشكره على ما فعل وامره بان لا يمكن العسكر من ايذاء
احد من الرعايا ويأمره باقامة الحدود على الوجه الشرعي وان ينصف
في احكامه الى آخره واما خيربك فانه لما بلغه قتل الغزالي تكدر
عيشه واوصى واعتق مماليكه فقالت زوجته تعيش راسك
وتبقى وكانت تسمي خوند مصر بيك وكان قد تزوجها قبله الملك
الناصر محمد بن قايتباي وبقيت عازبة مدة سلطنة الغوري
الى ان تولى خيربك فتزوجها فانه لم يكن في النساء اسخى منها في
عصرها وكانت خازندارتها تسمى دولتباي وكانت خوند مصر
بيك كاتبة فقال لها ان بين عمري وعمره مدة سنة فكان كذلك
فما تم العام الا وقد مات خيربك بفرخ الجمر ودفن في تربته التي
عمرها في طريق القلعة عند باب الوزير وهي المعروفة الآن
بالخيربكية وكانت الناس تسمع صراخه في القبر وهو يصيح حتى
ضجت الناس من ذلك وكان موته عبرة لمن اعتبر وهكذا الدنيا
تفعل باهلها فهنيئا لمن اعرض عنها وقنع منها باليسير وترك الكثير
عن باله فتبا لها من دنيا غدارة غرارة وكفى ذمالها قوله سبحانه
وتعالى فلا تغرنكم الحياة الدنيا الآية ثم ان السلطان سليمان رحمه

الله عليه شرع فى التوجه الى الغزو فى سبيل الله تعالى لاخذ جزيرة
رودس فانه قد كان قوى باسهم وزاد فسادهم وارتفعت
رؤسهم بعد موت السلطان سليم وفرحوا بموته فرحا شديدا
وطمعوا فى اخذ بلاد المسلمين وحدثتهم نفوسهم الخبيثة بما لا
قدرة لهم عليه وظنوا ان ولده السلطان سليمان لا قدرة له
على حرب ولا غزو فاظهر الله تعالى من العدل والانصاف والخير
ما يفوق الوصف فرحمه الله تعالى ورحم اجداده الكرام وابناءه
الطاهرين والسلام ثم انه خرج بنفسه الى اخذ رودس ففتح الله
تعالى عليه باخذها وقد كان السلطان ارسل لخير بك ملك
الامراء بمصر راية العقاب وهى من رايات سيدنا محمد صلى الله
عليه وسلم وعلى جميع الانبياء والمرسلين فارسل من عسكر مصر
ومن شباب مصر وجهزهم فى نحو العشرين مركبا وجد السلطان
سليمان فى محاصرة رودس ولما دخلوا على رودس وجدوا العسكر
مطمئنين ولما بلغ السلطان سليمان قدوم العسكر امرهم بالدخول وكان
قد نصره الله تعالى على يدهم ولما حصل النصر امر اهل رودس بعمل مهرجان
وزينت البلدة احد عشر يوما ولما انقضى المهرجان انعم على العسكر
وامرهم بالانصراف الى اماكنهم والله سبحانه وتعالى اعلم وصلى الله على
سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم قد تم طبع هذا الكتاب
المستطاب بعون الله الملك الوهاب فى اوائل شهر
ربيع الآخر سنة ١٢٧٨ اتمها الله بخير على
المسلمين امين وصلى الله
على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه
وسلم

